

ستالين

الوجه الحقيقى لأسطورة موسكو

هشام خضر

مكتبة النافذة

ستالين

الوجه الحقيقي لأسطورة موسكو

تأليف: هشام خضر

الناشر

مكتبة النافذة

ستـــالين

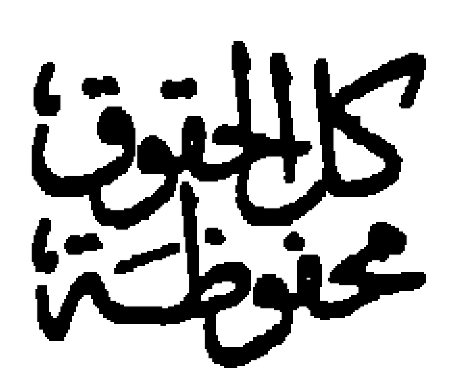
هشام خضر

الطبعة الأولى 2009

رقم الإيداع: 21848 / 2008

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة



الناشر: مكتبة النافذة

المدير المسئول: سعيد عثمان

الجيزة ٢شارع الشهيد أحمد حمدى

الثلاثيني(ميدان الساعة) - فيصل

Tel: 37241803 Fax: 37827787
Mob: 012 3595973
Email: alnafezah@hotmail.com

نافذة الكتاب

الواقع أن جوزيف ستالين الذي ظل جاثمًا على أنفاس شعوب الكتلة الشرقية وفي طليعتها الاتحاد السوفييتي كان مثار إعجاب واحترام الملايين من أبناء شعبه وبقية البلدان التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفييتي أو ما اصطلح عليه بكتلة حلف وارسو.

لكن ستالين الرهيب الذي عاش طفولة بائسة وحياة طائشة كانت حافلة بالجوع والفقر والبؤس والضياع والسجن والنفي والهرب والكفاح، قد أعدم الملايين من أبناء شعبه الذين أرادوا مقاومته بعض قراراته التعسفية لإيمانه الشديد بأن القوة الغاشمة هي السبيل الوحيد لتفعيل سياساته الغاشمة وتمرير توجيهاته الظالمة وغرس بذور نظرياته المستبدة.

ولأن الآلة الإعلامية في أوربا الشرقية -كعهدنا بها- قد استطاعت أن تجعل من ستالين بطلا، بل وإلهًا يقدسه الجميع، فقد حاز ستالين على ثقة أبناء شعبه تارًا بالترهيب بواسطة أجهزته القمعية، وتارة بالترغيب عبر أدواته الإعلامية الأمر الذي دفع أحد مفكري المشرق العربي ناعيًا رحيله المفاجئ بمقال صارخ ومستفز بعنوان «طبت حيًا وميتًا يا ستالين!!».

وهكذا نجح الإعلام الأحمر في تدشين زعامة سفاح أوربا الشرقية وكأنه خليفة أعظم خلق الله الذي قال قولته الشهيرة راثيًا رسول الله ﷺ : «طبت حيًا

ومبتًا يا رسول الله»

على أية حال هذا الكتاب يفضح هذا الأفاك الأثيم والسفاح الرهيب الذي حصد أرواح الملايين من أبناء الاتحاد السوفييتي لتكريس أعمدة حكمه وحماية دولته الحمراء التي أحالت حياة أوربا الشرقية إلى ليل طويل لا ينتهي إلا بمجيء ميخائيل جورباتشوف ليبصق الجميع على قبر ستالين الذي انكشفت مجازره وجرائمه وآثامه بعد أن رحل عن الدنيا غير مأسوفٍ عليه..

هشام خضر

الفصل الأول

ستالين الذي لا نعرفه

بالطبع كانت مدينة «جولي» التي شهدت ميلاد الزعيم جوزيف ستالين عام ١٨٧٩ مجرد مدينة صغيرة تدور في فلك المدينة الأم جورجيا أشهر مدن ما كان يسمى قديمًا بـ «الاتحاد السوفييتي» قبل أن تتناثر حبات عقده الفريد على يد الزعيم السوفييتي ميخائيل جورباتشوف أو (ميخا) كما كان يحلو للرئيس الأمريكي رونالد ريجان أن يناديه به دائمًا.

وبعد أن اعتلى جوزيف ستالين سدة الحكم وأحكم قبضته الفولاذية على الجمهوريات السوفييتية، وأدار شؤونها مستخدمًا في ذلك سياسة الحديد والنار أضحت «جولي» مسقط رأسه هي درة العقد الفريد.

ولم يكن ذلك فحسب، بل كانت «جولي» طوال الحقبة الستالينية مقصدًا للجماهير السوفييتية لإلقاء نظرة تأملية على الدار التي ولد بها وترعرع زعيمهم المهيب، لقراءة دقيقة لطبيعة نشأته ومراحل تكوينه، والتأثيرات البيئية، والتفاعلات الاجتماعية التي أفرزت القائد الملهم والمعلم والرمز والأخ الكبير، والعم والذي لا يقهر والأب العظيم.

ولأن الزعيم الأسطورة كان عنيدًا عنيفًا صلبًا حادًا فقد كانت جميع الشروحات والتفسيرات والتحليلات والقراءات تصب في خانة حكمته وعبقريته وشجاعته حتى رحل عن الدنيا غير مأسوف عليه، لتتقلب منهجية ونظم وقواعد هذه الأبحاث عليه انقلاب السحر على الساحر فتكشف سوءاته وتفضح سياساته وتعري عوراته بعد أن اطمأنت وتأكدت من أن روحه قد فارقت جسده بغير رجعة.

• من أين جاء لقب ستالين؟

وربما لا يعرف كثيرون أن اسمه الحقيقي كان مختلفًا اختلافًا جذريًا عن اسمه الذي اشتهر به، حيث إن اسمه الذي دونه والده في سجلات المواليد هو «جوزيف فيزا ريو نوفيشي دجوجا شفيلي».

أما لقب ستالين الذي اشتهر به فمرده لكلمة «ستال» التي تعني في اللغة الروسية «الصلب أو الفولاذ» وقد برز صاحبنا بوصفه رجلاً قويًا صنديدًا، عنيدًا، صلبًا لا يلين، ولا ينحني ولا ينكسر حتى إن معالم وجهه الأحمر وشاربه الأصفر وعيناه اللامعتان رسخت لدى الغير مدى جهامته وصرامته، وشكيمته، ومن ثم حظي بلقب الرجل الصلب تماشيًا مع ملامحه الباردة وطباعه الجامدة.

• حياة ستالين طفلاً

وكان والده فيزاريون يعمل في زراعة الأرض ضمن ملايين الفلاحين الذين عانوا وكابدوا شظف العيش حتى إنه قد ضاق ذرعًا بأعمال الزراعة لندرة أرباحها، وفرط أعبائها فاضطر تحت وطأة الضغوط أن يلتحق للاشتغال بالصناعة أملاً في توفير حياة كريمة بيد أن الأحوال المعيشية للشعب الروسي حينئذ كانت تتدهور وتتجه بسرعة الصاروخ من سيء إلى ما هو أسوأ.

ناهيك عن التحديات المعيشية التي استفحلت أمام الأب فيزاريون فقد حاول القفز عليها أو الالتفاف حولها عبر مسالك ملتوية ومتعرجة وشاقة، حيث آثر الاشتغال في أعمال التجارة بيد أن اقتصاديات السوق لم تكن تؤهل أبناء تلك الطبقات من الانطلاق والفكاك من أغلال وقيود.الفقر والبؤس والشقاء.

وعلى أية حال كان الأب تواقًا إلى الموت الذي كان أقرب إليه من حبل الوريد متطلعًا لالتماس الراحة والاستمتاع بالهدوء والترفل في النعيم بعد أن قضى حياة كانت حافلة بالعذاب، والمعاناة والكفاح والشقاء وقد لفظ أنفاسه الأخيرة عام ١٨٩٠ .

أما والدته فقد كابدت أثناء وجود زوجها الفقر المدقع وقسوة الحياة، وموت طفلين لها كانا يكبران جوزيف كما لم تفارقها المعاناة بعد أن رحل زوجها إلى الأبد.

وكانت الأم كاترين لا تدخر جهدًا في السعي إلى توفير حياة رغدة لولدها الوحيد الذي فقد والده ولم يعد هناك من يكفله ويرعاه سواها، ومن ثم أغدقت عليه بحنانها واحتضنته بدفء مشاعرها فأضحى طفلا مدللاً.

ولأن جوزيف كان قد برع في فرض إرادته على أقران الحي الذي يقيم فيه ويملي آراءه على زملائه فنال لقب ستالين أي الولد الصلب، وراح الجميع ينادونه بـ «ستالين» فأطرب ذلك قلب والدته التي أضحت تلاطفه وتناديه وتلاعبه باسم «سوسو».

ويروي المقربون من الزعيم ستالين أن والدته كانت تناديه بهذا الاسم بعد أن صار من أعظم رجال الاتحاد السوفييتي، بل والعالم وأنها حاولت الامتناع عن منادته بذلك لولا إصراره هو على ذلك حيث كان يبتهج لسماع كلمة «سوسو» منها دون غيرها بالطبع.

• ستالين قسيساً !!

والواقع أن الأم كانت قد أرادت أن تنذر ابنها جوزيف للكنيسة لعل الرب يحفظه لها، ويبقيه بين عينيها على قيد الحياة، وهو ما دفع الأم «كاترين» لأن تلحقه بالمدرسة الدينية في «جوري» على أمل أن يتخرج فيما بعد قسيسًا يلقي المواعظ والعبر على أهل البلدة.

وعلى هذا النحو تدرج جوزيف في جميع مراحل الدراسة الدينية حيث كان يحصل على أعلى الدرجات بين زملائه حتى بات معروفًا لدى من حوله بأن المستقبل الديني الباهر ينتظر هذا الطفل النابه والعبقري الهادئ.

ومع تطور النمو العقلي والذهني لدى جوزيف واتساع مداركه وأفقه راح يصغي السمع لمن يكبرونه لعله يكتسب المزيد من المعلومات التي كان يسمعها لأول مرة.

وما إن بلغ العشرين من عمره حتى كان قد أنهى شهادته اللاهوتية بصورة نهائية بعد نجاحات ساحقة حققها طوال مراحل سنوات الدراسة التي بدأها منذ أن تخطى عامه السابع.

ولم يكن جوزيف يكتفي بالتحصيل الثقافي عبرالاستماع للندوات والمؤتمرات التي كان يتردد عليها، وكان لها أبلغ الأثر في تنمية قدراته، بل كان كثيرًا ما ينهمك وينكب على مكتبه لقراءة مؤلفات أشهر فلاسفة وأدباء أوربا أمثال فيكتور هوجو وفولتير ونيتشه وداروين وكارل ماركس.

• صفات ستالين

أما جوزيف ستالين نفسه فقد كان شخصًا مثيرًا للدهشة ومدعاة للتأمل ومحط أنظار العالم لما تحلى به من صفات جعلته إله الاتحاد السوفييتي ومعبود

شعبه الأوحد بلا منازع.

لم يكن جوزيف طويل القامة، ولا حتى بالقصير، بل كانت قامته تقف منتصبة بين هذا وذاك، عريض المنكبين، قصير الساقين، يتمتع بصحة جيدة وان بدت آثار وباء الجدري على صفحة وجهه الأحمر.

أما عيناه فكانت سوداء اللون تشع ذكاءً وتبعث الرهبة على من حولها، يحمل في جسده قلب أسد، وفي رأسه عقل ثعلب، لا يعرف معنى العاطفة كما تجهل العاطفة الطرق المؤدية إليه، وإن تظاهر أمام الآخرين بأنه يتمتع بأحاسيس مرهفة، وهو ما كان يثير سخرية البعض داخل أنفسهم بالطبع، فما كان ذاك الذي يجرؤ على أن يسخر علنًا منه، ولو أمام نفسه!!!

كان فظًا ، عنيفًا، يؤمن بأن الموت هو أحسن وأسهل الطرق للتخلص من الخصوم، وتصفية الأعداء توفيرًا للوقت ولإنهاء النزاعات حتى لا يطول أمدها بما قد يؤثر على سير الأحداث التي تتطلب الهدوء والاستقرار، ومن ثم لم يكن مستغربًا أن يلقي أكثر من عشرة ملايين سوفييتي مصرعهم على يديه لمجرد اختلاف بعضهم معه في الرأي والرؤى، أو لمجرد إرهاب المجتمع السوفييتي لتحقيق مآربه وتكريس أوضاعه، وترسيخ زعامته على جثث أولئك الضحايا..

وبالتالي فقد أدت هذه السياسة الدموية إلى تنصيبه زعيمًا مهابًا بلا مناس حيث تصدرت صوره وتماثيله جميع الشوارع والمصانع والطرقات، والمدارس، والحضانات، وجميع الدواوين الحكومية، بل والمنازل أيضًا، وأماكن المتنزهات، والملاهي على اعتبار أنه الرجل الأوحد الذي يهب الحياة للشعب السوفييتي.

● دور الإعلام في حياة ستالين

وما من شك أن الآلة الإعلامية التي سخرها الرجل لخدمة أغراضه وتلميع صورته وتجميلها في أعين الشعب السوفيتي قد كان لها تأثير هائل على أذهان

الشعب الذي استقر في وجدانه أن ستالين هو الواهب المانع، المنتصر، المعز، والمذل، والذي لا تستقيم الحياة بدونه، ولا تمضي بسواه.

ولم يكن ذلك مستغربًا حيث اعتادت الآلة الإعلامية الجهنمية داخل الدول التي تخضع شعوبها لأنظمة الحكم المستبدة التي تتخذ من الديكتاتورية منهجًا أصيلاً وأساسيًا في إدارة وتنظيم حياة شعوبها حيث كان هتلر في برلين، وموسوليني في روما قد سبقا ستالين في ترسيخ معنى الديكتاتورية الحديث الذي يعتمد اعتمادًا جذريًا على الميديا.

كان موسوليني قد أغلق جميع الصحف المناهضة والمعارضة له، وألقى القبض على أصحابها، وأسس صحفًا جديدة كانت تسبح بحمده وتمجد سياساته حتى أضحى -في نظر الشعب الإيطالي- (الرجل الإله) حتى انكشفت الحقيقة لدى الشعب الإيطالي المسكين الذي تبين له أن الدوتشي بينو موسوليني ما هو إلا بشر مثله!

ولعل الزعيم النازي أودلف هتلر لا يزال ساكنًا في الأذهان بوصفه الزعيم الأشهر بين طواغيت هذا القرن المنصرم حيث اعتمد على وزيره «جوبلز» الذي تولى شؤون الدعاية والإعلام التي حولت هتلر من رجل أهوج متغطرس أحمق، عنيد إلى زعيم ملهم، وعبقري، وحكيم ليدفع الشعب الألماني ثمنًا باهظًا لهذا الرضوخ والانصياع للآلة الإعلامية التي كانت ولا تزال تلعب أخطر أدوارها لدى الشعوب النامية، والتي ما زالت تجثم على أنفاسها أحذية الطغاة!!!

ولأن ستالين كان بارد الأعصاب، جامد المشاعر، هادئ الطباع، يتمتع بقدرات فائقة في ضبط أعصابه فقد استطاع أن يتغلب على خصومه وينتصر على متاعبه وأوجاعه.

كما اتصف ستالين أيضًا بالذكاء والدهاء والتروي وعدم التسرع في اتخاذ

القرارات، لا سيما المصيرية والتاريخية على عكس الحكام المستبدين الذين يتصفون بالتهور والاندفاع، أضف إلى ذلك براعته في تصويب سياساته ومسار اتجاهاته وتوجهاته وتصحيح أخطائه دون أدنى حرج.

واشتهر جوزيف ستالين بالصبر على المكاره لحين مجيء اللحظة الملائمة للقضاء على من عكر صفوه، وكدر مياهه الرائقة، وقد تجلى ذلك عندما أراد أن يستأثر بمفرده على أدوات السلطة ويستحوذ على مفاتيحها، وهو الأمر الذي تطلب التحلي بالصبر والتريث على منافسيه حتى تمكن من تصفيتهم، وإزاحتهم ، وإبعادهم واحدًا تلو الآخر في هدوء ووقار وسكينة وسط عاصفة من الدهشة والاستغراب.

أما النزعة الدينية فلم يكن ستالين قد تحلى بها قط بعد أن انخرط في صفوف الحركة الثورية ضد حكم -آل رومانوف- قياصرة روسيا، وروي أنه لم يذهب إلى الكنيسة قط منذ أن نال شهادة الكلية اللاهوتية عام ١٨٩٩ باستثناء المرة الوحيدة التي أمر فيها رجال الدين المسيحي أن يقيموا الصلاة على جثمان زوجته الثانية «نادزدا» إظهارًا لوفائه وإخلاصه ، وحزنًا وأسفًا على رحيلها الذي ثارت حوله الأقاويل.

وكثيرًا ما كان يتفاخر بقوله أمام البعض إنه لا يؤمن قط بالقدر ويرى أن القدر مظلوم، بل هو فكرة سخيفة!!

وأنه - أي القدر- كان ينسجم مع حياة الإغريق الذين كانوا يقدسون آلهتهم المزعومة ظنًا منهم أنها تصنع أمورهم وتدير شؤونهم في حين كان أولئك الإغريق هم الذين يبتكرون آلهتهم التي يعبدونها، ويقدسونها، وهو ما يدعوني للاستغراب من حماقة هؤلاء القدماء.

وكان يقول أيضًا عن القدر إنه ضد القانون، وينطوي على شيء ما من السحر

والغموض وأنا لا أومن به.

وعرف عن ستالين أنه كان لا يهوى اقتناء الأشياء الثمينة باستثناء وسامًا واحدًا يرمز إلى (بطل الاتحاد السوفييتي) حيث صنع بإبداع وعبقرية وهو عبارة عن نجمة ذهبية معلقة في شريط أحمر.

أما عن هندامه فقد كان يميل إلى الإتقان ومراعاة الدقة والذوق الرفيع، والأخذ بأحدث خطوط الموضة في ملابسه حيث كان يبدو أنيقًا، وسيمًا، جذابًا على عكس موسوليني زعيم الفاشية الإيطالية الذي لم يكن يعبأ بهندامه كما لم يكن يبالي قط بنظافته!!!

وكان ستالين يعتني بتهذيب شعر رأسه وشاربه الكثيف وحاجبيه الأسودين.

والرجل يميل إلى الرسم على الورق بسرعة مذهلة خلال أحاديثه مع معاونيه، وضيوفه وسرعان ما يلقي برسوماته في سلة المهملات تأكيدًا منه على أن رسوماته وخطوطه ما هي إلا إرهاصات وتنفيسات لحالة خانقة انتابته أثناء اللقاء الذي يجمعه مع أولئك الذين لا يروقون له.

ويفضل تدخين الغليون (البيب) على السجائر وإن كان كثيرًا ما طلب صناديق من السجائر الأمريكية التي كان يهوى تعاطيها دون غيرها، أضف إلى ذلك عشقه للخمور والفودكا شأنه شأن بقية أفراد الشعب الروسي.

كما أن جوزيف ستالين أو سوسو ذاك الولد المدلل لدى والدته كان قد اكتسب صفات المرح وإطلاق النكات والدعابة من والدته التي كانت لا تمل من خوض الأحاديث الساخرة والضاحكة.

وكانت جديته انعكاسًا حقيقيًا لملامحه الصارمة، والمتجهمة ونظرت عينيه المرعبة على عكس لحظات مرحه التي كانت تشير إلى استبدال ملامحه القاسية

بأخرى تتسم بالرقة والعذوبة والمودة حتى كان المرء يحار في حقيقة هذا الرجل الذي يملك القدرة على تغيير صفحة وجهه متى تتطلب الأمر ذلك.

● النساء في حياة ستالين

أما عن النساء فلم يكن شغوفًا بهم على عكس زعماء الاتحاد السوفييتي، بل وعلى العكس تمامًا من الزعيم الإيطالي موسوليني الذي كان لا يدخر جهدًا في إخماد شهواته المتأججة متى التقى بأية سيدة بغض النظر عن هويتها وملامحها ونظافتها ومستواها.

ولم يكن الزعيم الشيوعي «لينين» الأب الروحي الذي أشعل الثورة البلشفية سوى ذئب نساء لا يكف عن ملاحقة جميلات روسيا والاستئثار بهن كما كان مولوتوف مساعده وسكرتير الحزب الشيوعي الذي كان لا يتورع عن اصطياد أية امرأة تطيب له.

وكان ستالين حريصًا على تدشين حياة أسرية، ومن ثم تزوج ثلاث مرات كانت الأولى في عام ١٩١٣ من فتاة تدعى (كاترين) اقترن بها خلال سنوات النضال والكفاح الثوري، وقيل إنها كانت من أسرة متواضعة ولم تكن على قدر من التعليم والثقافة وكثيرًا ما عانت معه خلال سنوات زواجهما لغيابه المستمر والطويل عن فراش الزوجية إما لانهماكه في إعداد وتجهيز الثورة مع رفاقه الشيوعيين، وإما هربًا وفرارًا من ملاحقات ومطاردات رجال البوليس الذين كانوا يطرقون باب بيته كل ليلة بصورة مفزعة ومرعبة.

وفي عام ١٩١٧ نفس العام الذي شهد اندلاع الثورة البلشفية ضد آل رومانوف توفيت كاترين أثر إصابتها بداء السل الذي نهش صدرها ولفظت أنفاسها، وهي ترتمي في أحضان ستالين توصيه خيرًا بابنهما فاسيلي.

وبعد مرور عامين على رحيل كاترين اضطر تحت ضغط الحاجة وإلحاح

زملائه ورفاقه إلى الاقتران بزوجة أخرى تدعى (نادزدا)، وهي ابنة أحد رفاقه الثوار بيد أنها توفيت هي الأخرى عام ١٩٣٢بصورة مفاجئة أثارت جدلاً صاخبًا وأقاويل تدور في صالونات أوربا ومنتدياتها حيث أشارت أصابع الاتهام إلى ستالين الذي قيل إنه تخلص منها بعد أن تجاسرت على انتقاده علنًا أمام نخبة من مجلس الوزراء السوفيتي فضلاً عن تبرمه من استشهادها المتكرر بمآثر أبيها ومقولاته!!

ثم سرعان ما اقترن بالزواج من أخرى ثالثة تدعى «روزا كاجانوفيتش» وهي شقيقة وزير مواصلات البلاد وقيل إنها كانت فتاة مرحة ودودة ولطيفة المعشر، ورقيقة الطباع حتى في علاقتها مع فاسيلي ابن ستالين من زوجته الأولى وابنته «سفيتلانا» التي أنجبتها له زوجته الثانية.

ويروي الرواة السوفييت أن زوجته الثالثة استطاعت بذكائها ودهائها استمالة ستالين واجتذابه إليها بعد أن لاحظ مدى عمق العلاقة الوثيقة بينها وبين ابنيه لاسيما وأن أزمات نفسية واجهها ابنه ومتاعب طارئة بفعل الشائعات عن حقيقة وفاة والدتها كانت قد ألقت بظلالها على أعصاب ابنته سيفتلانا».

والواقع أن روزا كانت بمثابة طوق النجاة لتلك الأسرة التي كانت على وشك الانهيار ناهيك عن نجاحها في تهيئة الأجواء الملائمة لستالين الذي كانت تطيب له البقاء معها لقضاء أمتع أوقاته بعيدًا عن متاعبه ومصاعب ومشكلات الرئاسة وصداعها المزمن.

الشاهد أن ستالين لم يكن كما سبق وأن أشرنا زئر نساء، بل كان منضبطًا متمسكًا بالقيم على عكس عدد من الزعماء الذين فاحت رائحتهم العفنة مع النساء.

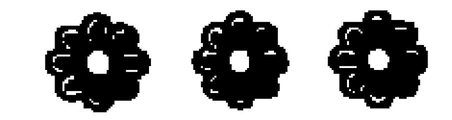
● هوايات ستالين:

كان ستالين يهوى سماع الموسيقى الأوبرالية، وكان يعتصر ألمًا لتدهور أحوال الفن الأوبرالي في بلاده، ومن ثم كان كثيرًا ما يلجأ إلى سماع الأوبرا الإيطالية، والموسيقى الفرنسية الخفيفة ، كما كان شديد الاهتمام بمشاهدة الرقص لا سيما وأنه كان مولعًا بالفقرات التي كانت تقدمها النجمة الروسية المتألقة أولانوفا، حيث كانت الأجهزة الأمنية قد أعدت له مقصورة سرية خاصة به يتعذر على الحضور مشاهدته أو اكتشاف أمره لحرصه على عدم الكشف عن وجوده.

أما مقابلاته ولقاءاته السياسية سواء مع ضيوفه الأجانب أو مع أعضاء حكومته فقد كان يصر على أن تجرى ليلاً متى أسدل الظلام أستاره على البلاد التي كانت تعيش في ظلام دامس تماشيًا مع سياسية ترشيد الاستهلاك التي كانت تتبعها البلاد، ومن ثم كان قصر الكرملين هو البقعة الوحيدة في الأراضي السوفييتية التي تتلألأ بداخلها الأنوار!!

وهكذا كانت البلاد تعيش في ليل بهيم لا ينتهي، بل طال أمده حتى بلغت الأرواح الحلقوم، وراح البعض يهتف في نفسه ألا لهذا الليل الطويل من آخر؟

وكم سألت الأنفس السوفيتية دون أن ترد لسائليها جوابًا، ومن كان يجرؤ على السؤال حتى تتجاسر ذاته على الرد؟!



الفصل الثاني

سنوات الصبا والشباب

أردت في الفصل الفائت أن ألقي نظرة خاطفة وعابرة على بعض من ملامح شخصية جوزيف ستالين قبل أن ندلف إلى الإبحار في أعماق تلك الشخصية التي كانت لغزاً يستعصي على الجميع طوال بقائه حيًا.

والواقع أن هذا الرجل الذي كان ملء السمع والأبصار وسيد العالم يستحق الوقوف مليًا أمام مرحلة صباه لاستكشاف الكيفية التي توكأ عليها للوثوب على السلطة والإمساك بجميع أدواتها بعد أن كتم الأفواه وأخرس الألسنة، وحصد الأرواح ليظل الرجل الذي أثار الرعب في نفوس الملايين من أبناء الاتحاد السوفييتي والذي كان يحبس أنفاس العالم متى أراد ذلك.

● ميلاد ثائر:

لقد تأججت نيران الثرة ولهيبها في صدر جوزيف منذ بواكير صباه حيث لم يكن قد بلغ الرابعة عشر من العمر حين أعلن عصيانه وتمرده ورفضه الجامح للقواعد والنظم المعمول بها داخل المدرسة اللاهوتية التي كان قد ا لتحق بها في

مدينة «تغليس».

كانت ثورته مدعاة لدهشة قساوستها ومعلميها وتعجب زملائه حيث كانت العيون شاخصة نحوه والأفواه قد انفتحت على مصراعيها والرؤوس بدت كما لو أن أصحابها غرقوا حتى الثمالة في بحور الخمر.

لقد كان الفتى جوزيف كارهًا ، رافضًا للدين المسيحي، بل ولكافة الأديان والشرائع السماوية حيث تأصلت بداخله النزعة الإلحادية منذ أن كان طفلاً وهو ما يدفعني غريزيًا لأن أشبهه بالزعيم الفاشي موسوليني ، والنازي هتلر، لاسيما وأن الأول كان يحرص على توبيخ رجال الكنيسة وإلقاء الحجارة على روادها، وإلحاق الأذى بصلبانها فضلاً عن استخفافه المستمر بالدين المسيحي، وبالسيد المسيح، بل وبالذات الإلهية، وهو ما تجلى حين تبوأ مقعد السلطة حيث أصدر أوامره بالقضاء على دور رجال الدين ومحاولة التحقير من شأنهم متى لاحت لهم الفرصة لذلك.

ولم يكن النازي أودلف هتلر ببعيد عن هذا السلوك الهمجي الأحمق حيث كان هو الآخر يرمق رجال الديانات السماوية بنظرات لا تخلو من شرر يتطاير منها واحتقار يبرز بين مقلتيه، وكأن من سمات الطواغيت هي كيفية القضاء على دور العبادات ورجال الدين حتى لا ينازعهم أحد في سلطان القداسة والألوهية التي خلعوها على أنفسهم.

الشاهد أن الصبي جوزيف ستالين الذين كان أشبه بمرجل يغلي من فرط تأثره بأدبيات الفيلسوف الملحد وصاحب المذهب الشيوعي كارل ماركس قد كان عجولاً متسرعًا مهرولاً نحو الانخراط في صفوف أعداء وخصوم قصر آل رومانوف أباطرة روسيا وأسيادها.

وأمام نزعته الثورية المتطرفة قرر الانخراط بصورة عملية في خلايا الثوار

السرية غير عابئ بمصيره ومستقبله الدراسي ومن ثم فقد كان شهر مارس عام ١٨٩٨ علامة فارقة ومرحلة خطيرة في حياة الفتى الذي كان قد قرر تشكيل حياته كما ينبغي هو بعيدًا عن توجيهات والدته ومناشداتها التي لا تنتهي ومواعظ وإرشادات رجال المدرسة اللاهوتية التي كان قد ضاق بها ذرعًا ولم يعد يحتمل أن يبقى بداخلها أكثر من ذلك مهما كلفه ذلك الأمر.

❁ ❁ ❁

في تلك الأثناء عام ١٨٩٨ كانت مدينة تغليس التي يقطن بها لتلقي العلوم الدراسية داخل المدرسة اللاهوتية قد تشكلت «شعبة تغليس لحزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي».

وكان جوزيف يتردد من حيث لآخر على المنتديات والندوات والحلقات النقاشية الساخنة لهذه الشعبة الوليدة التي كانت بمثابة عود ثقاب أشعل نيران الغضب الثوري بداخله.

وعلى أثر وجوده الدائم على مقر الشعبة ولقاءاته المتعددة ونقاشاته الصاخبة والحادة والغاضبة مع قادتها وقواعدها من أعضائها الثائرين لم يتردد في طلب استخراج بطاقة عضوية لا سيما وأن لينين الزعيم الأشهر والألمع للحزب قد ألقي القبض عليه وبات رهن الاعتقال.

في العام ذاته ١٨٩٨ ذلك العام المحوري في حياة جوزيف تجلت قدراته حيث بادر إلى التحرك الميداني للدعوة إلى الانخراط في صفوف الشعبة في شجاعة نادرة أدهشت رجال الحزب ولجانه العليا فنال استحسانهم ، ومن ثم ذاع صيته وشاع أمره بين أبناء تغليس وهو الذي لم يكن قد بلغ العشرين من عمره.

وما إن لمع نجمع في سماء المدينة السياسية والثورية حتى فوجئ داخل مسكنه

البسيط بفريق من أعضاء اللجنة النقابية لعمال ورش السكك الحديدية يعرضون بين يديه تنصيبه رئيسًا لنادي العمال تقديرًا منهم لشجاعته وجسارته، وكبريائه الشامخ، وثورته الوطنية ضد الاستبداد..

ولم تقتصر الأمور على هذا النحو، بل إن العمال طالبوه بتحمل المسؤولية لقدرته على تجسيد أحلامهم والتعبير عن آلامهم، والمطالبة بحقوقهم المهدرة.

وعلى الرغم من أن جوزيف الداهية قد تظاهر في بادئ الأمر بالرفض مشيرًا إلى أنه ممن لا يطمحون في الاستحواذ على المناصب ولا يطمعون في مقاعد السلطة إلا أنه عاد وأكد امتنانه ونزوله لرغبة الوفد النقابي الذي بادر من تلقاء نفسه لعرض الأمر عليه.

وهكذا بدت على الصبي تجليات ومظاهر الطغاة المستبدين الذين اعتدنا على ترددهم الزائف والتمثيلي المصطنع حتى حقت عليهم تلك المقولة الشهيرة والمأثورة:

«تسلل للحكم ثعلبًا فحكم أسدًا ومات كلبًا»، وهي من أسف كلمة حق تتوافق مع أولئك الذين أذلوا شعوبهم وأعملوا فيهم القتل والانتقام، وترويع الآمنين، وفي طليعتهم صاحبنا «جوزيف ستالين».

والتقط جوزيف طرف الخيط الذي أمسك به بكلتا يديه لانتهاز اللحظة التي أقبلت إليه طائعة وجثت على ركبتيها بين يديه راكعة خانعة في سن مبكرة، ومن ثم أبدى موافقته شارطًا على رسل النقابة العمالية دعمه ومساندته ومؤازرته حتى يتسنى له انتزاع حقوقهم وتلبية مطالبهم من بين أنياب الحكومة المستبدة.

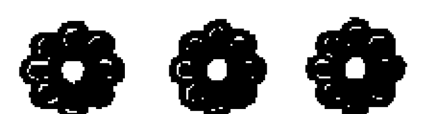
وفي أعقاب توليه منصب رئيس نادي عمال ورش السكك الحديدية راح يتردد على بيوت زملائه من العمال التقدميين الثوريين أمثال ستوروابد جبيلا دزيه

وتشوريد شفيلي وشقيقه بوتشريد شفيلي للاستماع إلى خطب ودروس ومحاضرات بعض الزعماء الثوريين الذين كانوا يلهبون بحماستهم شباب العمال الغاضبين.

في تلك البيوت التي تردد عليها جوزيف سرًا في دياجير الظلام هربًا من العيون الأمنية الراصدة لخطى النقابات العمالية تلقى دروس الوطنية والمفاهيم والنظريات الماركسية والتقدمية كما أنه اكتسب وتعلم مناهج ومقررات الجهاد العملي فضلاً عن إلمامه لفنون النضال الثوري.

والحاصل أن الرجل في غمرة تجلياته النادرة التي كان يحرص خلالها إظهار بساطته وتواضعه وإبراز مراحل كفاحه ونضاله وعذابه من أجل استقلال وتحرير بلاده من قبضة آل رومانوف حيث راح يقول في إحدى خطبه:

«لقد تعلمت وأنا في صبايا فنون الثورة على يد عمال تغليس، وأرجو منكم يا سادة أن تسمحوا لي أن أعبر لهم عن اعتزازي بالعمل معهم والتتلمذ على أيديهم والاعتراف بالجميل.. كزميل».



ومضى جوزيف يناضل سرًا وعلنًا من أجل إعلاء راية حزبه الاشتراكي الماركسي التقدمي الذي كان قد احتوى عل آلاف الشباب الروس الحالم بالثورة على حكم القياصرة، واللاهث وراء جنة الاشتراكية تلك الكلمة التي كانت تبدو براقة وجذابة ولامعة ومثيرة لاسيما وأن الشعوب الأوربية لا سيما الإيطالية والألمانية قد تأثرت بها إلى حد بعيد.

وحيث إن الحزب ارتأى أهمية توسيع أنشطته وتعظيم دوره في التأثير على مجمل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية والعقائدية لتكريس

قواعد الاشتراكية وتأصيل أهمية تضخيم صور العداء للقياصرة فقد استلهم قادة الحزب فكرة إصدار جريدة تعبر عن آراء ورؤى ومناهج الحزب وتبرز أهدافه ومراميه في محاولة لاجتذاب واحتضان الشباب الروسي الذي يجهل حقيقة الحزب وما يصبو إليه.

ففي عام ١٩٠٠ صدرت الطبعة الأولى من العدد الأول لصحيفة «إيسكرا» وتعني باللغة الروسية «الشرارة» وراح جوزيف يرقب صدورها كما يرقب العاشق محبوبته ويمسك بأوراقها صباح كل يوم كما يمسك الطفل ثدي أمه يرضع منه لتنمو أفكاره وتكبر أحلامه وبتضاعف إيمانه واعتقاده بالاشتراكية يومًا بعد آخر.

كانت الجريدة منهله الفكري والثقافي والأدبي والسياسي لا سيما وأن الجريدة كانت تضم بين كتابها الحبر الأعظم، والكاهن الأكبر، الزعيم الشيوعي الأحمر: فلاديمير لينين الذي اعتنق جوزيف أفكاره وتأثر بآرائه فحفظ نظرياته ومقولاته عن ظهر قلب.

وبمرور الوقت وإصرار جوزيف على مطالعة صحيفة الحزب وقراءة مقال لينين الذي كان يتضمن مفاهيمًا أبصرتها عينيه لأول مرة أضحى جوزيف تواقًا متلهفًا دائمًا باليوم الذي يلتقي فيه لينين ويصافحه ويتأمل محياه وتتكحل عيناه بطلعته البهية، وتطرب آذانه لكلماته الثورية الفكرية.

لقد تمكنت الماركسية من جوزيف كما تمكن العشق من قيس ليلى، ومن ثم آثر الدعوة إلى الماركسية غير عابئ بتداعيات سلوكه الأحمق، حيث كان قد آمن بها كما آمن أصحاب الديانات بالكتب السماوية، فحق عليه نشرها وتوسيع رقعتها، وتضخيم قادتها.

كان جوزيف لا يدخر جهدًا في توصيل وتفسير وتوضيح وتشريح معاني

الماركسية والاشتراكية وأهمية تأصيلها في البلاد لما سوف تجليه من منافع وأرباح ومكاسب وعدالة، ومساواة وإذابة الفوارق الطبقية وتصفية للإقطاع وإنهاء لحقبة النبلاء ليتساوى الجميع دون أية تفرقة طبقية أو تمييز عنصري أو عرقي.

ولأن جوزيف قد نجح في إشعال ثورة عمال السكك الحديدية وتمكن من إحراز بعض الانتصارات في معاركهم الطويلة ضد الإدارة المستبدة إذا به يتلقى عرضًا آخر من نقابة عمال ورش الأحذية ليتولى رئاستها ويدير شؤونها.

بالطبع لم يكن جوليف ليرفض مثل هذه العروض التي أضفت عليه مهابة، ووقارًا كما ضاعفت من شهرته ولمعان نجمه داخل «تفليس» ولم تقتصر العروض على نقابة الأحذية فحسب، بل بلغ الأمر بعمال مصانع التبغ بأن أوفدوا بعض من رموزهم إلى مكتبه لتنصيبه رئيسًا لنقابتهم، وهو ما أدى إلى نمو بذور الثقة التي كان عمال ورش السكك الحديدية قد غرسوها من قبل وتعاظم دوره وتألق أداؤه حتى أضحى هدفًا أمنيًا يتعقبه رجال الشرطة لمضايقته وملاحقته لتضييق الخناق عليه لعله يكف عن سلوكه وتصرفاته الطائشة وفق المفاهيم الأمنية حينئذ.

وعلى الرغم من مظاهرات الغضب التي اجتاحت البلاد عام ١٩٠٠ والتي شارك فيها ستالين وشهدت سقوط أعداد هائلة من القتلى والجرحى، وأضعاف ذلك من الذين سقطوا في براثن البوليس القيصري لم يواجه ستالين أية اتهامات رغم جلاء دوره للقاصي والداني وذلك لقدرته وبراعته في التخفي والاختفاء إذا ما استشعر الملاحقات الأمنية التي لا تكف عن اقتفاء أثره.

ومع تزايد نشاطه الحزبي أوفده قادة الحزب إلى مدينة (باطوم) عام ١٩٠١ تجنبًا للوقوع في أيدي الشرطة التي كانت قد وضعته على رأس القائمة المطلوب إلقاء القبض عليها، وتوظيف قدراته الفذة في تأليب أهالي تلك البلدة وإشعال نيران عصيانهم وتمردهم على السلطات الحاكمة، وهو التكليف الذي وضعه جوزيف ستالين نصب عينيه ولم يبارح مخيلته قط.

لم يكن جوزيف مجرد ثوري حالم بالإطاحة بالحكم القيصري المستبد، بل كان يعتقد في داخله أنه مبعوث العناية الإلهية التي كلفته السماء بتغيير أوضاع الشعوب السوفييتية وتحريرها من أغلال العبودية لآل رومانوف، وعلى أثر اعتقاده الراسخ والمتمدد بداخله راح يحرض أهالي باطوم وذلك في ربيع ١٩٠٢ للخروج على النظام العام، وتكدير صفو الأثرياء وأبناء الطبقات الثرية الذين كانوا يتريحون على حساب أغلبية أبناء باطوم لا سيما وأن هذه المنطقة كانت تسبح على آبار نفطية أنعشت البعض وألقت بظلال الفقر على من يشكلون الغالبية العظمى في باطوم.

ولأن الأغلبية كانت تئن وترزخ تحت نير الظلم والفقر المدقع فقد تلقفت دعوته للتظاهر ضد السلطات دون أن تتوخى الحذر فيما يمكن أن تلجأ إليه السلطات لكبح جماح جماهير المتظاهرين الثائرين، ومن أسف فقد كانت التحرك المضاد للشرطة أعنف وأقسى وأغلظ مما كان يتصور ستالين وغيره حيث انطلقت رصاصات رجال الشرطة صوب المتظاهرين دون تمييز أو مراعاة لمشاعرهم الغاضبة فسقط مئات القتلى، ونزف آلاف الجرحى حتى أغرقت دماؤهم شوارع باطوم..

ولم يكن هذا الإجراء كافيًا لدى قادة الشرطة الذين كانوا قد تلقوا أوامرًا وتوجيهات بالضرب في سويداء القلب دون أن تأخذهم رحمة أو شفقة، ومن ثم

ألقت السلطات القبض على المئات الذين تصدروا صفوف الجماهير الغاضبة ، الثائرة، وبالطبع لم يكن جوزيف ستالين بمنأى من الوقوع في شباك رجال الشرطة الذين كانوا يترصدونه ويتبعون خطواته، ويتحينون الفرصة الملائمة للزج به في غياهب السجن لعله يرتدع وينكمش ويهدئ من روعه حتى تخمد نيران ثورته المشتعلة.

وأمام المحقق الرسمي واجه جوزيف عريضة طويلة من الاتهامات أهمها:

- تحريض الجماهير للتظاهر.

- والتخريب.

- والسعي إلى تكدير السلم العام.

- وتخريب جبهة السلام الاجتماعي.

- والتأليب الطبقي ضد الأغنياء.

- واعتناقه أفكارًا متطرفة تهدف إلى إشعال الحرائق في طول البلاد وعرضها.

- والانضمام لتنظيم شيوعي مناهض للحكم القيصري.

وعلى ضوء عريضة الاتهامات الموجهة إليه على يد سلطات التحقيق الرسمية قضى جوزيف ستالين نحو عام ونصف العام داخل أحد سجون باطوم.

ولما انقضت فترة سجنه وأوشك على الخروج إلى عالمه الذي كان يتوق إليه حيث اعتصره الألم داخل السجن لشعوره بالعجز والشلل من التحرك ضد الأوضاع المتردية، والمتدهورة كانت السلطات قد جهزت له قرارًا قيصريًا يقضي بإبعاده ونفيه إلى سيبريا المنفى الرهيب الذي كان يحتضن المغضوب عليهم نظرًا لدرجة حرارته التي تبعد عن الصفر بأكثر من عشرين درجة.

ولمن لا يعرف سيبريا فهي كانت المنفى الذي يستقبل خصوم أعداء القياصرة الروس من آل رومانوف وهي منطقة شهيرة بانخفاض درجة حرارتها إلى حد التجمد حتى إنها كثيرًا ما تبلغ أكثر من عشرين درجة تحت الصفر.

ورغم قسوة المناخ في سيبريا إلا أن أعداء النظام القيصري تطيب لهم أجواؤها لعلهم يتفرغون بعيدًا عن المشاحنات والمهاترات لقراءة ما تعذر عليهم قراءته من قبل حتى إن ستالين نفسه فرغ من دراسة حياة وأفكار الفيلسوف كارل ماركس خلال سنوات نفيه بسيبريا.

وعلى الرغم من قسوة الأحكام وغلظها فقد كان ستالين في حاجة ماسة إليها من أجل إعلاء شأنه ودفه همته، ولمعان نجمه، وتوسيع شعبيته، وذيوع صيته سواء كان ذلك بين صفوف الجماهير الروس أو بين أبناء حزبه الذي يقاتل ويناضل من أجل ترسيم خطاه نحو مستقبل سياسي مشرق ومتألق.

لكن جوزيف ما كان ليصبر على هذا البلاء ويتحمل الابتعاد عن حزبه وزملائه أو مقاومة البرودة القاسية والقاتلة والمميتة داخل سيبريا مما اضطره إلى الهرب بعد أن مكث في سيبريا نحو شهر كامل.

كان جوزيف قد وصل سيبريا محاطًا بحراس أمنية شديدة تشير إلى مدى أهميته وخطورته حتى بلغ الركب الأمني قرية وفايا أودا إحدى قرى مقاطعة أركوستنك.

وفي هذه القرية استطاع جوزيف أنْ ينسج خيوط المودة مع أبناء القرية الذين أبدوا تعاطفًا معه، وتعاهدوا سرًا على مساعدته في الهرب عبر أحد رجالهم الذي كان دليله ومرشده للعودة إلى قرية تغليس.

وبالفعل نجح ستالين في إتمام عملية الهروب في يناير ١٩٠٤ بفضل ذكائه الاجتماعي وقدرته الفذة على التأثير في أهالي القرية.

ولما علمت السلطات البولسية بنبأ هروبه أصدرت نشرة عاجلة وزعتها على كافة المدن والقرى الروسية لمحاصرته والإسراع في إلقاء القبض عليه، وإيداعه داخل السجن مرة أخرى.

وكانت النشرة الأمنية قد أشارت إلى خطورته على الأمن العام والاستقرار الاجتماعي، ثم رصدت مكافأة لمن يدلها على مكان اختبائه.

كما تضمنت النشرة الأمنية أوصاف وملامح جوزيف ستالين حيث أشارت إلى طول قامته الذي لم يكن يزيد على متر وسبعين سنتيمتر، ثم أكدت أنه مستطيل الوجه تكسوه علامات مرض جدري أصابه في سن مبكرة، وأنه ذو لحية سمراء وشارب أسمر وأنف مستقيم طويل، وشعر الرأس أسمر فاتح، وأنه متوسط الحجم، ولا يزيد على ٢٣ عامًا.

ورغم الملاحقات والمطاردت الأمنية التي لم تتوقف لإلقاء القبض عليه منذ هروبه بيد أنه أصر على مواصلة اختبائه في تحد سافر للبوليس وجميع الأجهزة الأمنية.

وما من شك أن اعتقاله ونفيه وهروبه كانت كلها تصب في مصلحة مشواره السياسي الطويل لا سيما وأنه قد أضحى من رموز العمل الوطني الذي تتناقل الصحف أخباره وتروي مشواره بين مؤيد له ومعارض لما يقوم به.

وفي عام ١٩٠٥ كانت قبضة رجال الأمن قد تراخت أو ربما لم يعد جوزيف ستالين يحتل مقدمة أولوياتهم لتدهور الأحوال المعيشية، وبروز زعامات جديدة أزعجت بهيبتها وتأثيراتها آل رومانوف، وبالتالي كان للتحول الأمني والالتفات لما هو أهم وأخطر من جوزيف ستالين دافعًا لتنشيط تحركاته، وتفعيل دوره لا سيما، وأنه لاحظ حال عودته أن أعضاء الحزب قد انقسموا على أنفهسم، وأن معاركًا ضارية دارت رحاها بين زعمائه وأنصارهم حتى كاد الحزب

أن يسقط في قاع الهاوية.

وكان التنافس على زعامة الحزب أهم معاول هدم الحزب حيث كان الزعيم لينين يتطلع إلى الانفراد برئاسته فيما راح منشفيك يسعى جاهدًا للاستئثار بالزعامة محاولاً إزاحة لينين من طريقه.

أما جوزيف فقد كان مهووسًا بزعامة لينين متأثرًا بمقالاته النارية وعباراته الحماسية، وكم تاق لرؤيته ومصافحته والالتقاء به وجهًا لوجه لكن جوزيف أثناء هذا الاحتدام والتنافسر الحزبي آثر ألا يفصح عن هوية انتمائه، وإلى أي الفريقين هو أقرب تحسبًا لحسم الصراع، وإلى من سوف تنتقل زعامة الحزب تحوطًا من إزاحة لينين وتغلب فريق منشفيك وهو ما يمكن أن يؤثر بالسلب على مسيرة جوزيف.

والواقع أن هذا التصرف الرصين أو الماكر الذي يعتمد على التريث والتحلي بالصبر والتأني في اتخاذ القرار المناسب من أبرز طباع جوزيف ستالين، وربما كانت من أهم عناصر نجاحه وتقدمه وانطلاقه وتربعه على عرش السلطة.

وفي عام ١٩٠٥ اضطر جوزيف إلى أن يخلع رداء الحياد الشكلي ويعلن صراحة انتماءه إلى فريق لينين رغم أنه لم يلتق به قط.

وكان ستالين يهفو كالعاشق لرؤية من أحب حتى لاحت أمامه الفرصة الذهبية لمشاهدة زعيمه ومعبوده فلاديمير لينين، وذلك خلال انعقاد المؤتمر البلشفي الذي دعت إليه الأقاليم التي كانت تدور في فلك الاتحاد السوفييتي، ودعت إلى أهمية عقده في فلندا لوضع حد للنزاعات والصراعات القائمة والتي باتت خطرًا جسيمًا يهدد مصير البلاد ويتربص بمستقبلها.

صحيح أن لينين ذو القامة المتوسطة والملامح البسيطة كان صادمًا للشاب

الثوري الحالم جوزيف ستالين الذي كان يظن أن زعيمه لينين طويلا مفتولاً وعملاقًا.

وفي عام ١٩٠٦ تلقى جوزيف تكليفات حزبية تدفعه للسطو المسلح على صناديق الادخار والمصارف لسرقة ما بداخلها من أموال نقدية أو ذهبية.

والواقع أن «سوسو» أو جوزيف لم يدخر جهدًا في ممارسة تلك الأعمال الإجرامية والإرهابية لا سيما وأن هذا التكليف قد صادف هوى لديه كمجرم تتملكه نزعة أصيلة كانت قد توحشت بداخله جعلته توافًا إلى تسخير طاقته الكامنة واستغلال ذكائه وأدواته الإجرامية في تنفيذ ما هو موكول إليه.

والشاهد أن حوادث السطو والسلب والنهب كانت قد تعددت وانتشرت وأضحت ظاهرة تستحق التأمل والانتباه حتى إن أحد المؤرخين جوستاف فاويلتر راح يشير إلى ضلوع جوزيف ستالين قائلاً:

«إن الذي تولى إعداد وتجهيز وتنفيذ هذا الهجوم على بنك الدولة كان أحد تلاميذ لينين أقصد الشاب الجورجياني دوجوجاشفيلي المعروف بستالين».

وأسفرت هذه الحوادث الخطيرة والتي كانت قد لاقت استحسانًا شعبيًا اجتاح صفوف خصوم آل رومانوف فقد ألقي القبض عليه بعد أن تأكد لخبراء وقادة الأمن القيصري تورطه في ارتكاب حوادث السطو المسلح.

لم تكن عقوبة السجن هي نهاية المطاف في خضم صراعه المرير مع الحكم القيصري، بل كان النفي المتكرر والتقليدي إلى سيبريا كان أهم وأبشع العقوبات التي عانى منها جوزيف، بيد إنه كثيرًا ما غافل حراسه وأطلق ساقه للريح عائدًا إلى حيث يريد.

ويروي المؤرخون الروس أن حراس جوزيف في سيبريا كانوا يتظاهرون بالغفلة

ريثما يلوذ بالفرار إيمانًا منهم بدوره الوطني وتبرمًا منهم واستياءً من الحكم القيصري.

وهكذا عاش جوزيف بين النضال والاعتقال، والنفي الإلزامي لعله يرتعد أو يتراجع، وهو الاعتقاد الخاطئ الذي كان يسيطر على جوقة آل رومانوف حيث كانت كل هذه الإجراءات والتدابير إنما تزيد من إصراره وتضاعف من صلابته، وتقوي عزيمته، وتتوهج منها ملامح وجهه المتألق..

كان ستالين الثوري الحالم الطامع للوصول إلى السلطة لا يعبأ بما يتعرض له بقدر ما كان يتوق إلى إنزال أقسى عقوبة به في محاولات جاهدة منه للاستحواذ والسيطرة على مشاعر وعواطف الآخرين، وسحب البساط من تحت أقدام من يتفوقون عليه، أو يستحوذون على شعبية مماثلة أو تلك التي تفوقه وتتعداه.

كان جوزيف قد حفظ كتاب (رأس المال) أو منفستو الثورة الشيوعية للفيلسوف الألماني كارل ماركس إيمانًا منه بعبقرية ما أورده كارل ماركل في التفسيرات المادية والجدلية للتاريخ وما استعرضه من مفاهيم معاصرة وحديثة وصادمة حول رأس المال وكيفية السعي إلى ضرورة تسخيره لخدمة الشعوب والعمل على ضرورة تذويب طبقاتها والتخلص من فوارقها لاسيما التي تستحوذ على نصيب الأسد فيما يتضور الباقون جوعًا من فرط إفلاسهم.

كما أن جوزيف ستالين كان مؤمنًا بضرورة إحياء دور الدولة على حساب الفرد أو الطبقة الرأسمالية وهو التعريف الذي اصطلح عليه بالاشتراكية أي المشاركة الاجتماعية والوطنية دون تفرقة بين جميع أبناء الشعب أو التمييز لأي طبقة من الطبقات مع تكريس الدور العمالي في تفعيل النظرية على أرض الواقع على

اعتبار أن الطبقة العمالية كانت هي أهم أسلحة الثوار الشيوعية، والاشتراكية حيث لعب العمال أدوارًا رئيسة وأساسية في إشعال ودعم الثورات التي اندلعت ضد الأنظمة الملكية.

لكن ينبغي الإقرار بأن النظم الشيوعية والاشتراكية لم تكن قد تولت الحكم نتاج انفجار شعبي وتظاهرات عمالية كما كان يدعو إلى ذلك كارل ماركس، وإنجلز ولينين.

فالثابت الذي لا يتتابني الشك فيه قيد أنملة أن أغلب النظم الشيوعية أو الاشتراكية الحاكمة سطت على الحكم عبر مدافع دباباتها سواء كان ذلك في مصر أو ليبيا أو سوريا، أو العراق، أو اليمن، أو كوبا، أو الصين، أو بوليفيا، وفنزويلا، وكوريا ، ورومانيا، وغير ذلك حيث ندر خرج الجماهير ضد القياصرة الأمر الذي دفع العسكريين إلى إعلان البيان رقم واحد إيذانًا بكشف الستار عن شروق شمس الجمهورية وغروب شمس الملكية.

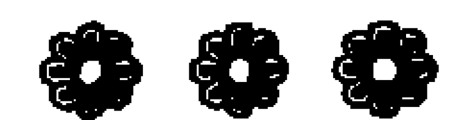
ناهيك عن أولئك الذين رفعتهم شعوبهم إلى مصاف الآلهة، وقد كانوا من الأبالسة حيث سفكوا الدماء، وداسوا بنعالهم على عزة شعوبهم، وكرامتها باسم حماية مكتسبات الأمة، ولم يكن من بينهم من هو أفضل حالاً وأهدأ بالاً من أدائه السلطوي من حكم القياصرة والأباطرة.

لقد كان أغلبهم يتسم بالتهور والرعونة، والاندفاع، وانفلات اللسان والأعصاب، ولعلي لا أكون مبالغًا إذا قلت إن الثورات الشعبية الحقيقية النابعة من بين أصلاب الشعوب وولدت من رحمهم هي تلك التي اندلعت داخل مدن أوربا الشرقية ودعوا قادتها لخلع الشيوعية وتوابعه التي أجهدت الشعوب

وتضورت منها جعًا ، وناشدتهم العودة، والارتماء في أحضان النظم الليبرالية، والرأسمالية لتتنسم عبير الحرية السياسية والترفل في نعيم الحرية الاقتصادية.

إن هذه الشعوب عانت من تداعيات حكم الجنرالات الذين اتخذوا من الأساليب القمعية والقهرية، والتعسفية سبيلاً لتكريس أنظمتهم، وعروشهم بدلاً من تفعيل الحرية والديمقراطية، والعدالة، والمساواة لتنمية شعوبهم وتقوية قواعد وأعمدة أنظمتهم، ومن ثم ثارت الشعوب تنشد الخلاص والتحرر ولتذهب أفكار ماركس ونظرياته وآراء لينين وتفسيراته إلى الجحيم غير مأسوف عليها.

وللتأكيد على ما نقول ما جرى في بلدان الكتلة الشرقية التي كانت تدور في فلك حلف وارسو الذي يقوده ويتزعمه ما يسمى بالاتحاد السوفييتي حيث انطلقت الشعوب التي كانت حبيسة أسوار ألمانيا الشرقة وما حولها للهرب إلى مدن ألمانيا الغربية، ولم نسمع قط أن من أبناء ألمانيا الغربية من حاول تسلق السور الفاصل بين الألمانيتين لكي ينعم في جنة الاشتراكية، بل كثيرًا ما سمعنا عن محاولات لا تنتهي عن سقوط ضحايا من ألمانيا الشرقية بفعل رصاصات جنود الحراسة على أمل القفز هربًا إلى ألمانيا الغربية.



الفصل الثالث

الثورة البلشفية

رغم أن آل رومانوف كانوا يحكمون قبضتهم على البلاد منذ مئات السنين، بيد أن سوس الفقر راح ينخر في عظام عرشهم فيما كان لينين وتروتسكي وستالين وغيرهم يحرضون الشعب على الخروج للتظاهر والاحتجاج والعصيان المدني.

والواقع أن التحديات الداخلية التي أحدثها لينين وأنصاره من البلاشفة لم تكن هي أخطر ما يواجه حكم آل رومانوف حيث كانت النزاعات الإقليمية والصراعات الدولية تمثل خطرًا داهمًا وجسيمًا على الاستقرار السياسي والاجتماعي والأمني في البلاد.

والحاصل أن صدامًا عسكريًا وقع بين روسيا واليابان عام ١٩٠٤ وهي نفس الفترة التي شهدت صورًا متعددة من مظاهر الاستياء والسخط الشعبي ضد آل رومانوف الذين تشتت جهودهم وحارت أذهانهم بين لظى الداخل، وجحيم الخارج.

كان الجيش الياباني قد شن هجومًا مباغتًا على القوات الروسية في موكا فضلاً عن قيام وحدات الأسطول الياباني بتخريب وإحراق الأسطول الروسي في الباسفيك والبحر البلطي.

أما دوافع الجيش الياباني فقد كانت وراءها كبح جماح النفوذ والتوسع الروسي على حساب اليابان حيث كانت روسيا قد استقطعت منطقة لياتبونج من الأراضي اليابانية كما ضمت روسيا إلى مناطق نفوذها ميناء بورت آثر وقيامها باحتلال النصف الجنوبي من جزيرة سمالين وتدشين قواعد عسكرية في منشوريا ولأن الجيش الياباني اعتاد على الهجوم المباغت فقد كان النصر الحاسم حليفًا له مما أرغم الروس على الإذعان لشروطهم، وتلبية مطالبهم وإعادة حقوقهم ومغادرة أراضيهم امتثالاً وانصياعًا لبنود معاهدة (بورتسموث) التي قضت بإبرام مصالحة بين البلدين يتعهد خلالها الجانب الروسي بمغادرة الأراضي اليابانية التي احتلها أضف إلى ذلك إصرار اليابانيين على إعلان الروس اعترافهم بسيادة اليابان على كوريا.

ولأن الجيش المنهزم غالبًا ما يتعرض لصدام داخلي مع شعبه فقد كان مألوفًا وطبيعيًا خروج الجماهير الروسية للتظاهر والاحتجاج على ما آلت إليه سياسة آل رومانوف بالبلاد وبالإمبراطورية التي كانت زمنًا مرهوبة الجانب.

ومع اندلاع ثورة الشعب عام ١٩٠٥ عقب عودة الجنود الروس منكسي الرؤوس من ميادين القتال مع اليابان اضطر القيصر إلى اتخاذ بعض الإجراءات السياسية والتدابير الأمنية لإخماد نيران الغضب الشعبي.

وعلى ضوء تلك التطورات والمستجدات اضطر صاغرًا أمام هجمة الشعب

الثائر إلى نفي مئات الآلاف إلى سيبريا لإجراء وقائي مؤقت ريثما تعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل.

ثم كان لجأ إلى إعلان تأسيس النظام البرلماني في محاولة ذكية لتسكين الشعب وتهدئته بيد أن البرلمان الروسي الذي لم يكن متمتعًا بصلاحيات واسعة قد باشر أعماله كما لو كان هو صاحب القول الفصل في البلاد الأمر الذي أزعج القيصر وآثار حنقه مما حدا به إلى اللجوء إلى الدستور لحل البرلمان الروسي والدعوة لانتخاب برلمان آخر لكن شوكة الشعب الروسي ما كانت لتتكسر قط، بل كانت مغروسة كالسهم في ظهر القياصرة حيث راحت جموع العمال مدفوعة بتحريض البلاشفة اللينيين لتشكيل مجالس داخل المدن والقرى والمصانع والمزارع اصطلحوا عليها باسم «السوفييت» على اعتبار أن هذه المجالس بديلة عن البرلمان الروسي في إعلان جلي لمناصبة العداء مع القصر الحاكم.

من جانبه لم يقف القيصر مكتوف الأيدي إزاء ما يجري أمامه من انتهاكات صارخة لشرعيته وصلاحيته، ومن ثم أمر بنفي أولئك الذين أعلنوا عصيانهم المدني وانقلابهم على الأوضاع القائمة إلى سيبريا إمعانًا في إذلالهم.

ولم يكن ذلك فحسب، بل أنشأ القيصر برلمانًا آخر بيد أن البرلمان الجديد لم يكن أقل وطنية وحماسة من سابقه حيث ندد النواب بسياسة آل رومانوف وطالبوه بالرضوخ لمطالب الشعب الأمر الذي دفع القيصر إلى استخدام صلاحيته الدستورية في حل البرلمان للمرة الثانية وتشكيل برلمان ثالث لعله ينتهج سياسة رشيدة وفق الرؤى القيصرية.

وكان البرلمان الروسي الثالث متناغمًا مع السياسة القيصرية وهو ما أدى إلى تفاقم الأوضاع الاقتصادية التي تدهورت إلى حد غير مسبوق مما ضاعف من

تراخي قبضة آل رومانوف وانتشار واسع للبلاشفة بوصفهم ألد أعداء النظام الحاكم.

أريد أن أقول إن شمس القياصرة أوشكت على الغروب الأبدي لا سيما وأن الهزيمة التي منيت بها روسيا القيصرية على يد اليابانيين قد تزامنت مع تدهور معيشي خطير، ومن ثم باتت الثورة قاب قوسين أو أدنى برياحها العاتية تتأهب لاقتلاع جذور القياصرة وأعوانهم.

وإذا كانت الحرب اليابانية هي التي صممت وصنعت نعش القيصر فقد كانت الهزيمة الساحقة التي كانت من نصيب روسيا هي المسمار الأخير في هذا النعش الذي حمل آل رومانوف إلى مقابر طويلة ظلت خلالها جاثمة على أنفاس الشعب الذي كان يئن ويرزخ تحت نير طغيانهم.

كانت الثورة على الأبواب توشك على الاندلاع تنتظر اللحظة الحاسمة وكان لينين أبرز زعماء البلاشفة آنذاك منفيًا في سويسرا فيما كان تروتسكي يقيم إجباريًا في الولايات المتحدة الأمريكية بينما كان جوزيف ستالين يقضي عقوبة النفي في سيبيريا!!

وكانت الطبقة العمالية تلك التي سميت حينئذ بطبقة (البروليتاريا) قد توسعت وانتشرت بكثافة داخل البلاد الروسية، وهو ما كان دافعًا للتحرك الشعبي ضد القيصر نيكولاس الثاني لإجباره على التنازل عن العرش ومغادرة البلاد نزولاً على رغبة الشعب.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى وهبوط مستوى المعيشة الاقتصادية وتزامنًا مع ضعف الأداء العسكري في ميادين القتال انطلقت شرارة الثورة العمالية أو ثورة الجياع والفقراء والبائسين الذين أصابهم الفقر بالسخط والاستياء حتى أقبل شهر فبراير ١٩١٧ الذي شهد الزحف الشعبي الرهيب صوب قصور

القيصر (نيكولاس الثاني) يهتف ضده ويصرخ منددًا بسياسته حتى إن جدران القصر العتيق كانت تهتز خوفًا ورعبًا من قوة الهتافات والوحشية التي بدت جلية في عيون المتظاهرين.

وأمام الثورة الشعبية التي اندلعت وحاصرت قصور نيكولاس الثاني اضطر تحت الضغط الشعبي إلى التنازل عن العرش نزولاً على أمنياتهم ورغباتهم.

ويؤكد المؤرخون أن الثورة البلشفية لم تكن روسية خالصة أو صناعة وطنية، بل كانت هناك أياد خفية عبثت بمصير الأمة وحددت أهدافها ومراميها.

ومن بين الاجتهادات أو الاتهامات التي وجهها نفر من المؤرخين إلى الثورة الشيوعية أنها من صنع الألمان الذين تكبدوا على يد الجيش الروسي خسائر فادحة في الأرواح والعتاد، ومن ثم دبروا خطة شديدة الإتقان تجبر الروس على الخروج من ميدان الحرب لإحراز الانتصار الساحق على الحلفاء، وذلك من خلال تأليب القوى الداخلية ضد القيصر نيكولاس الثاني وسرعان ما يؤدي ذلك إلى إشعال ثورة شعبية تتطلب مزيدًا من القوات المسلحة لإخمادها مما يضطر القيصر لاسترجاع قوات بلاده حتى تخلو الساحة للألمان، ويتخلصوا من عدو صلبت عنيد.

ولما فشلت الخطة الموضوعة واضطر القيصر إلى الإعلان الرسمي لتنازله عن العرش تجنبًا لإراقة الدماء بين الشعب والسلطة سعت القيادة الألمانية إلى إضرام النيران في صفوف الشعب تمهيدًا لإشعال حرب أهلية ضروس تطيح بالاستقرار وتأكل أخضر البلاد ويابسها فيضطر الجيش الروسي إلى العودة الإلزامية لضبط الأمور، وإخماد نيران الحرب الأهلية والقضاء على أسبابها.

وللتأكيد على ذلك فقد أكد الزعيم فلاديمير لينين أثناء وجوده في غياهب المنفى الإجباري في سويسرا خلال نشوب ثورة فبراير ١٩١٧ أن بعض رجال

الجيش الألماني طلبوا لقاءه للتباحث والتفاوض معه بشأن مستقبل العلاقات الألمانية الروسية بعد تنازل القيصر.

وبالطبع كان الهدف من وراء هذه المفاوضات السرية من الزعيم المنفي فلاديمير لينين هو مساعدته في مغادرة منفاه الإجباري بعد تنازل القيصر والعودة إلى بلاده لإشعال حرب أهلية ضد القوى المضادة لها داخل روسيا، ومن ثم تتوسع الحرب الأهلية، ويطول أمدها بما يؤثر على موقف الجيش الروسي في ميدان الحرب مع الألمان، وهو تفسير لا يخلو من المنطق والحكمة.

وقد أشار لينين نفسه إلى هذا الأمر قائلاً:

«لقد سمح الألمان لي بمغادرة سويسرا عبر عربة قطار خاصة مغلقة حملتني أنا وبعض رفاقي من المنفيين حيث اجتزنا الأراضي الألمانية رغم أننا كنا في حرب معهم، وقد كان الألمان يأملون من وراء تلك الخطة أن تتحول الحرب الاستعمارية إلى حرب أهلية في روسيا».

● علاقة الصهيونية بالشيوعية

أما البعض فقد استعرض حقيقة الثورة الشيوعية الحمراء من منظور آخر يعكس مدى التغلغل والتسلل اليهودي الصهيوني في شتى مناحي الحياة على الكرة الأرضية لا سيما وأن هناك من أشار إلى الدور اليهودي في اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ شارحًا مدى ولاء زعمائها للمحافل اليهودية السرية التي حركت وصنعت الثورة من وراء ستار دون أن يتمكن أحد من كشف هوية أولئك المجهولين الخفاة.

وكان افتضاح الدور اليهودي في الثورة الفرنسية تأكيدًا على مدى قدرة اليهود وإرادتهم في التأثير على صناعة القرار السياسي والشعبي في أوربا، وتسيير شؤونها وإدارة أمورها كما تشاء على نحو عبقري حتى يتمكن أولئك الصهاينة من

إدارة شؤون العالم حيث إن من يحكم أوربا لا شك يحكم العالم أجمع.

وللتأكيد على ذلك فإن هؤلاء الصهاينة يتحكمون ويصوغون عقلية صانع القرار السياسي الأمريكي حاليًا، ومن ثم يحكمون ويتحكمون الآن في الكرة الأرضية وهو اعتقاد أظنه صحيحًا وسليمًا يخلو من التهويل كما أنه لا ينطوي على أية مبالغات.

الشاهد أن إعداء الثورة الشيوعية الحمراء التي أشعل لهيبها البلاشفة الروس ١٩١٧ يؤكدون في ثقة ويقين أن الثورة البلشفية لم تكن بمنأى من الوقوع في براثن اليهود الصهاينة لا سيما وأن «كارل ماركس» أبو الشيوعية ومؤسس نظرية الماركسية كان يهوديًا ألمانيًا، ومن ثم فالشيوعية أو الماركسية إنما هي فكرة يهودية صهيونية كانت نتاج دراسات عميقة صاغها بفكاءة واقتدار حتى أضحت الشيوعية عقيدة بشرية احتلت نصف الكرة الأرضية تقريبًا.

وللتأكيد على ذلك فإن «هنري كروييل» الذي كان وراء نشر الفكر الشيوعي في مصر من أصول يهودية، وكان مستغربًا من القوميين المصريين قبولهم للتعاون معه، والارتباط الوثيق به حتى إن بعض رموزهم أمثال خالد محي الدين، وأحمد حمروش كانوا يترددون على شقته التي يقطنها في العاصمة الفرنسية باريس للاستزادة من منابع أفكار منهجيته الشيوعية دون أن يستشعر أي منهم بأدنى حرج من كون الرجل ناشطًا شيوعيًا من أصول يهودية!!

أنا لا أقصد الديانة اليهودية بقدر ما أقصد النوايا الصهيونية وأولئك اليهود الذين لا يدخرون وسعًا في إثارة النعرات القومية والماركسية لتهميش الدين الإسلامي وتنحيته وانكماش دوره أمام المد القومي والتمدد الشيوعي.

● روسيا ثاني دولة تعترف بإسرائيل

وعلاوة على ذلك فقد أشار أولئك الذين ساورتهم الظنون وانتابتهم الشكوك حول حقيقة نوايا الفكر الشيوعي، ومرامي رواده والذين صدروه إلى الدنيا بأسرها أن:

«روسيا الشيوعية الستالينية هي ثاني دولة أعلنت اعترافها الرسمي بتأسيس «إسرائيل» على أنقاض فلسطين، وذلك بعد الاعتراف الأمريكي الذين أعلنه الرئيس هاري ترومان بنحو عشر دقائق من إعلان قيام الدولة الإسرائيلية»!

وتجدر الإشارة إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أعلنت اعترافها بعد مرور نحو عشر دقائق فقط من إعلان إسرائيل الرسمي، ومن ثم أعلن الاتحاد السوفييتي زمن «جوزيف ستالين» اعترافه الرسمي بها بعد انقضاء عشر دقائق من الاعتراف الأمريكي.

ولم يقتصر الموقف الرسمي السوفييتي على إعلان اعترافه بإسرائيل، بل راح يزايد على الموقف الأمريكي وينافسه في تأييدها ودعمها ومؤازرتها حيث أعلن «جوزيف ستالين» رئيس الاتحاد السوفييتي آنذاك استعداد بلاده للتدخل العسكري إذا اقتضت الظروف لحمايتها من العصابات العربية ناهيك عن الموقف الروسي المتخاذل إزاء ما جرى لمصر في عام ١٩٥٦ على يد العدوان الثلاثي الذي شنته إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، وبروز الدور الأمريكي، وإن كان لا يخلو من حبكة درامية انطلت على العرب حينئذ لكنه يتميز بالطبع عن الموقف الروسي الذي لاذ بالصمت واللامبالاة.

● الدور الروسي في حرب عام ١٩٦٧

ودعك من موقفه المشبوه في حرب يونيو ١٩٦٧ وتداعياتها الخطيرة على الأمة العربية حيث لا يزال الجسد العربي ينزف دمًا وترابًا وزمنًا حتى الأمن، وكان الاتحاد السوفييتي قبل الحرب قد نصح الرئس جمال عبد الناصر عبر سفيره بالقاهرة بضرورة التريث والتحلي بالصبر، وتجنب المواجهة مع إسرائيل وضرورة انتظار الضربة الأولى مع تعهد قطعه الاتحاد السوفييتي من خلال سفيره بدعم مصر وحمايتها ومساندتها ضد أي عدوان.

وكانت تلك المقابلة التي تمت في الثالثة صباحًا في أوائل يونيو ١٩٦٧ قد ألقت بظلال آمنة على الرئيس جمال عبد الناصر كما أنها بثت الطمأنينة في صدره، ومن ثم لم يكن الجيش متأهبًا ظنًا منه أن ما يجري على الجبهة إنما هو مجرد تهويشات وتهديدات تفتقر للجدية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الاتحاد السوفييتي أيضًا هو الذي كان قد أخبر القيادة السياسة في مصر عبر السيد أنور السادات الذي كان مقربًا وقتذاك من الرئيس جمال عبد الناصر بوصفه أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة وأبرز نواب رئيس الجمهورية، حيث كان في زيارة للاتحاد السوفييتي وقد أبلغه الروس أن حشودًا عسكرية إسرائيلية هائلة تنتشر على الحدود السورية وهي المعلومات التي أزعجت الرئيس جمال عبد الناصر.

ولأهمية تلك الأنباء وما يمكن أن يترتب عليها إذا صحت أوفد الرئيس جمال عبد الناصر الفريق محمد فوزي إلى الحدود السورية للوقوف ميدانيًا على حقيقة الأنباء السوفييتية.

وعلى متن طائرة عسكرية كان الفريق محمد فوزي يراقب ويرصد عن كثب حقيقة الحشود ، وسرعان ما عاد إلى الرئيس جمال عبد الناصر ليبلغه في

وضوح ما تنطوي عليه تلك الأنباء السوفييتية من أكاذيب وخزعبلات بيد أن السيف قد سبق العزل.

كان الرئيس جمال عبد الناصر قد ألهب المنطقة بخطبه النارية والعنترية وهو الأمر الذي هللت له تل أبيب ورحبت به، ومضت في استفزازه لكي يستمر في إطلاق التهديدات والتوعدات التي أكد خلالها عزمه القضاء على إسرائيل وإلقائها في البحر.

أما الولايات المتحدة فقد كانت تدعم إسرائيل سرًا من خلال التقاط الأقمار الصناعية لأوضاع القوات المصرية المتمركزة في سيناء فضلاً عن إرسال سفنها الحربية وطياريها وخبرائها إذا استلزم الأمر تدخلهم المباشر والفوري.

أما الاتحاد السوفييتي فقد كان مغلول اليد شحيحًا في تزويد العرب بالأسلحة اللازمة والضرورية، وكان يشترط بناء قواعد عسكرية وتواجد عسكري بشري مكثف بحجة تمرير التقنيات التسليحية وتدريب الضباط والجنود على الأسلحة الواردة من موسكو ولمن لا يعلم فكم عانت مصر من الشح السوفييتي والتباطؤ المقصود وعرقلة توريد الأسلحة باستثناء تلك التي كانت في حوزة القوات السوفييتية أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية حيث كان محظورًا على مصر إمدادها بأحدث الأسلحة.

أما المكاسب التي جناها الاتحاد السوفييتي من وراء تعميق علاقاته مع مصر فقد تمثلت في فتح أبواب الأمة العربية على مصراعيها أمامه بعد أن كان محظورًا عليه دخولها تحسبًا للنظرية الشيوعية التي لم يكن يتورع عن تصديرها وتعميقها في أرجاء الأمة العربية، ومن ثم توثقت علاقاته مع بلدان خليجية كان يتعذر عليها من قبل أن تفتح له ذراعيها أو حتى تصافحه في أية محافل دولية.

أضف إلى ذلك أن بلدانًا عربية كبرى مثل سوريا، واليمن، والعراق، وليبيا،

كانت ضمن النجوم التي دارت ردحًا من الزمان في الفلك الروسي.

ناهيك عن احتفالات مصر وهذه البلدان في سيتينيات القرن المنصرم بأعياد ميلاد الزعيم الأحمر فلاديمير لينين، وما تبع ذلك من إغفال عمدي لاحتفالية ميلاد النبي ﷺ مع التسليم بالوجود العسكري السوفييتي تحت مسميات عبثية.

لقد كان ما استعرضناه سابقًا جزءًا من التدليل على صهيونية الثورة الشيوعية.

ومن جانبي لا أستبعد ضلوع المنظمات الصهيونية في إشعال الثورة الشيوعية لكنني أخشى أن أكون ممن سعت تل أبيب إلى تضليلهم وخداعهم وإيهامهم بأن إسرائيل تملك ما لا يملكه أحد غيرها في الكرة الأرضية، وأنها تشعل ثورات هنا وتخمد غيرها هناك ، وأنها الآمر الناهي، والذي يدير شؤون الدنيا، ويحكم زعمائها ويتحكم في مصيرها.

أقول: أخشى أن أكون أداة من أدوات أخضعتها تل أبيب دون أن تدري أو تستوعب ما يحاك لها، ويراد بها في التشويق والترويج لقوة وهمية ونسيج خيوط أساطير قد تكون بالفعل مجرد أساطير لا أكثر من ذلك ولا أقل، ومن ثم فإنني أعرض هذا التفسير مشوبًا بحذر حتى لا يتخذنا أولئك الأوغاد عصا يرهبون الناس بها أو بوقًا يثير المخاوف ويضفي عليهم مهابة زائفة وعظمة خادعة.

على أية حال تشير المعلومات حول التفاف اليهود حول عنق الثورة البلشفية الحمراء من خلال سرد أسماء بعينها كانت ضمن رجال الثورة الشيوعية في أكتوبر عام ١٩١٧ .

ففي عهد الزعيم الشيوعي فلاديمير لينين تشكلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وهذه اللجنة تعد أعلى سلطة في الاتحاد السوفييتي من حوالي اثنا عشر عضوًا منهم تسعة من اليهود، فضلاً عن أن زعيمهم لينين كان متزوجًا من

يهودية علاوة عن أن أمه يهودية أيضًا، وهو ما يجيز وفق التعاليم التوراتية أن يبرهن على يهودية لينين حيث تؤكد التعاليم اليهودية أن اليهودي هو من كانت أمه يهودية، ومن ثم قد يكون بالفعل لينين يهودي الديانة جاهد، وسعى، وناضل، وقاتل من أجل تنفيذ وإتمام مخطط صهيوني شديد الإتقان لا سيما وأنه كان متزوجًا من سيدة يهودية تؤكد يهوديته من كل جانب.

وفي كتابه القنبلة «أيام رومانوف الأخيرة» يقول مؤلفه روبير ويلتون مراسل التايمز البريطانية في صفحة ١٣٦ :

«إن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي تكونت من برو تشتاين تروتسكي، يفليوم زينوفييف، لوري لارين، أورتيكي، فولدا رسكي، روزينفيلدت كامينييف، سفيردلوف يانكل، ناخامكي سيتكلوف، ويؤكد الرجل في كتابه الخطير أن هؤلاء الذين أورد أسماءهم التسعة إنما هم يهود قح، ثم ينتقل بنا إلى فقرة أخرى في صفحة ١٢٨ ليدلل على يهودية الثورة وتأصيل الصهيونية في مكتوبات زعمائها بقوله :

«إن اللجنة المركزية ذاتها في عهد ستالين شتكلت من ٥٩ عضوًا كان من بينهم ٥٦ عضوًا يهودًا بينما كان الثلاثة الآخرون قد تزوجوا من يهوديات وفي طليعتهم جوزيف ستالين»!!

ونعود إلى ملابسات الثورة وأحوالها ودور ستالين فيها، وما تمخضت عنه تلك الثورة من نتائج عكست طبيعة الإنسان الروسي الحالم بحياة هادئة كريمة.

الشاهد أن فلاديمير لينين عاد من منفاه الإجباري في سويسرا إلى روسيا ليشد أزر ثوارها ويلهب حماس عمالها الذين كانوا وقود الثورة وخطبها، بل وحجارتها التي ألقيت فألقمت آل رومانوف ورجمتهم فتهاوى عرشهم.

وبعد نجاح ثورة مارس ضد القيصر وعودة الرفاق المنفيين كان لينين وأنصاره يدقون المسمار الأخير في نعش روسيا القيصرية التي كانت تحتوي بعض أذناب القيصر وأنصاره، ومريديه لا سيما وأن أوربا الغربية قد دفعت بكل قواها لنصرة الجيش القيصري، ومن والاه بهدف تقويض الحركة العمالية وإجهاض الثورة الشيوعية وتطويقها حتى لا يتسع نطاقها ويتعاظم خطرها على بقية بلدان أوربا، وهو الأمر الذي أصبح الشغل الشاغل للساسة الغربيين والصداع المزمن الذي كان يدق رؤوس الساسة الأوروبيين والأمريكيين بعنف وقوة تحسبًا من مد شيوعي لا يقوى أحد على مقاومته إذ تمكن من التسلل والتغلغل، وهو ما يستدعي تضافر الجهود، وتوجيه الخطط وتنسيقها لخطر تداول مثل هذا الفكر الأيدولوجي المدمر على نمو المفاهيم التي روجها الساسة الغربيون.

الشاهد أنه في شهر يوليو ١٩١٧ أي بعد مرور نحو سبعة أشهر عادت ثورة الشعب وطبقته العمالية ضد نظامْ حكم الزعيم «كيرتسكي» ورجاله داخل الحكومة التي تشكلت بصورة مؤقتة في أعقاب رحيل القيصر وتنازله عن العرش.

كانت الطبقات الشعبية متباعدة عن بعضها البعض حتى إن كل طبقة أضحت كما لو أنها تعيش في جزيرة منفصلة لا تتصل ولا ترتبط بما حولها، ومن ثم كانت طبقة العمال بعيدة كل البعد عن طبقة المزارعين، وفيما كان الإقطاع لا يعير نظام الحكم أدنى اهتمام.

على جانب آخر كانت الطبقة المتوسطة أو التي نالت قسطًا بسيطًا من التعليم قد انخرطت في صفوف الحركة الاشتراكية..

كان المجتمع بأسره يشكو حاجته إلى الشعور بالأمان والاستقرار لا سيما بعد أن تراجعت القوات المسلحة الروسية أمام الانتصارات الساحقة التي حققها

الجيش الألماني بفضل كفاءة جنوده وتفوق أسلحته.

ولأن الشعب الروسي كان يعيش على سطح صفيح ساخن فقد تلقف الزعيم فلاديمير لينين تلك الفرصة لطرق الحديد وهو ساخن قبل أن تتسلل إليه البرودة أو تخبأ نيرانه المستعرة

كان لينين العائد من منفاه قد تجلى دوره داخل مجلس قيادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي.

(بالمناسبة جميع البلدان التي أطلقت على نفسها لقب الديمقراطية أثبتت التجارب والوقاع والأحداث أنها أبعد ما تكون عن الديمقراطية أمثال جمهوريات الاتحاد السوفييتي، وبولندا، ويوغوسلافيا، وألمانيا الشرقية، والصين، وكوبا، وليبيا، واليمن.

على أية حال كانت التحديات الداخلية أمام الحكومة المؤقتة التي روعتها غضبة الجماهير وثورتها الأمر الذي أدى إلى تعقب الثوار والمتظاهرين الذين سقطوا صرعى جراء الرصاصات الغادرة التي أطلقها البوليس الروسي حتى إن شوارع العاصمة (بترو جراد) قد تدفقت فيها الدماء واختلطت بها الدموع، وهزت أرجاءها الأهات والصرخات والبكائيات.

ولأن حكومة إلكسندر كيرنسكي قد انتهجت السياسة الدموية، وسفك الدماء، فقد تقوقع لينين وأطلق ساقه للريح هاربًا لينجو بنفسه بعد أن تأكد أنه على رأس قائمة المطلوب القبض عليهم، سواء كانوا أحياء أو موتى، ومضت الأمور على نحو يماثل ما كانت عليه الأحوال أثناء الحقبة القيصرية الأخيرة حيث أوشك عرش الزعيم إلكسندر كيرنسكي على الاندثار بفعل تنامي المد الشيوعي داخل مختلف الطبقات الاجتماعية ولكن لينين ما كان ليبقى خارج روسيا، وقد اقترب ودنا من السلطة التي بدأ عرشها يهتز رغم أن إلكسندر كان يتطلع إلى

الأخذ بالتجارب الديمقراطية التي سلكتها بلدان أوربا الغربية وهو ما يتعارض ويتصادم مع الأيديولوجية التي يتبناها لينين وحزبه الاشتراكي.

المهم أن لينين الذي عاد سرًا راح يؤلب الشعب على السلطة الحاكمة كما كان عهده زمن القيصر نيكولا الثاني.

ومع انتشار أوبئة الفقر والجوع ساد السخط والتذمر في صفوف الأمة الروسية فكانت خطب لينين ودعوته إلى التظاهر كثيرًا ما تلقى قبولاً وترحابًا من الجماهير.

في ٢٥ أكتوبر ١٩١٧ حتى اندلعت الثورة الكبرى التي أطاحت بالحكم الديمقراطي أو الذي كان في طريقه إلى الديمقراطية ليتولى الحزب الاشتراكي الديمقراطي أو (الشيوعي) مقاليد السلطة لتدخل البلاد مرحلة طال أمدها كان لها تأثيراتها ومخاطرها، وانعكاساتها ومجدها، وعظمتها، وانتصاراتها، وتوهجها، وتوسعها، وامتدادها، واستفحالها.

منذ ذلك التاريخ أصبح الاتحاد السوفييتي أهم وأكبر وأخطر إمبراطورية في العالم أو سيد نصف الكرة الأرضية حيث كان النصف الآخر تحكمه وتسيده الولايات المتحدة الأمريكية.

و هكذا أطاحت الجماهير الروسية بأعمدة حكم الديمقراطيين لتصبح الثورة البلشفية التي قادها البلاشفة بزعامة لينين أهم ثورات القرن العشرين على الإطلاق لما أحدثته من تغيرات وتحولات فكرية وعقائدية وأيديولوجية هزت العالم وأربكته.

الفصل الرابع

البلاشفة يحكمون

في أعقاب الإطاحة بالنظام الحاكم بزعامة إلكسندر كيرنسكي الذي اتخذ الديمقراطية سبيلاً للارتقاء بمستوى معيشة الجماهير الروسية في محاولة لإنعاشها ولتكريس دعائم استقرارها تولى الزعيم فلاديمير لينين مقاليد حكم روسيا.

كانت الأحوال قد تدهورت إلى حد خطير بين أبناء المجتمع الروسي، بل وجميع قوميات روسيا حيث إن حالة من الانهيار كانت قد اجتاحت البلاد، وهددت مستقبلها ومصيرها.

لم تكن مطالب الشعب الروسي مجرد أمنيات وتطلعات وأحلام، بل بذور ألقاها في تربة الوطن، وحان زمن حصاد ثمارها، ومن ثم لن ترض الجماهير بأية أوهام أو أكاذيب تعرقل أو تحبط إرادتها في جني ثمار كفاحها المرير عبر السنوات الماضية خلال حكم القياصرة الذين سفكوا، وسفحوا دماء آباءهم وأجدادهم.

كانت القوميات الروسية تسعى إلى الخروج من الشرنقة الروسية لعلها تحصل على الاستقلال أو الحكم الذاتي لعلها تلتمس طريقًا آمنًا هادئًا بعيدًا عن الأحداث الدامية والعواصف العاتية ألتي تجتاح البلاد حتى أضحى الاستقرار والسلام الاجتماعي حلمًا بعيد المنال.

أما المزارعون فقد كانوا بدورهم يأملون في تلبية مطالبهم التي تقتصر على إجازتهم تملك الأراضي الزراعية بعد أن كانوا جميعًا يعملون ويجاهدون ويزرعون لصالح طبقة الملاك الإقطاعيين، ولصالح النبلاء وأسرة آل رومانوف بينما كانت الأمة بأسرها تنشد السلام الاجتماعي في الجبهة الداخلية ومحاولة وضع حد فاصل لوقف تدهور أحوال الجنود الروس على جبهات القتال خلال صراع الحرب العالمية الأولى.

أما عن عمال روسيا فلم يكونوا بعيدين عما يجري، بل كانوا كما سبق وأشرنا وقود الثورة وعمودها الفقري وأكثر الطبقات التي حملت على كواهلها أعباء الثورة وما تمخضت عنه من نزيف دماء ودموع فاضت بها شوارع روسيا.

كان هؤلاء العمال يتطلعون عقب تولية فلاديمير لينين العمل على إشراكهم في ملكية المصانع التي يعملون بها من خلال أسهم على غرار النمط السائد والمعمول به في المصانع الغربية مع ضرورة الأخذ في الاعتبار شل يد الإقطاعيين ورؤوس الأموال تفاديًا لاستئثار فئة لممتلكات ومكاسب الشعب وحتى لا يعود شبح الحكم القيصري البغيض والإقطاع الرهيب.

كان لينين قد أعد من قبل خطة شاملة تهدف إلى بناء وتأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف تضم بين دفتيها جميع القوميات والعرقيات وتحتضن قسرًا

جميع العمال والمزارعين من خلال تفعيل حي لنظريات الرفيق والأخ الأكبر كارل ماركس.

ولأن المهام لم تكن هينة والقرارات المصيرية كانت محمولة على ريح عاتية فقد تتطلب الأمر تضافر الحزب الاشتراكي وتعاونه وتكاتفه ومساندته لزعيمه كي يتمكن من تنفيذ ما يصبو إليه، وما كان يقاتل ويناضل من أجله طوال سنوات القيصر نيكولا الثاني.

من هنا استدعى لينين رفاقه الذين كانوا معه زمن النضال الثوري كما ناشد العناصر الثورية الموالية له والذين ينتشرون داخل صفوف العمال والمزارعين والجنود لدعم موقعه وشد أزره للقفز على تلك المرحلة الخطيرة.

أما الحكومة المؤقتة فقد كانت رهن اعتقال البلشفيك وفقًا لأوامر الرفيق فلاديمير لينين لإفشال أي مخطط مضاد لحركته الثورية الوليدة لاسيما وأن القوى الدولية في أوربا كانت تعمل سرًا وعلنًا لدعم نظام حكم (إلكسندر كيرنسكي) لكونه زعيمًا ديمقراطيًا، وأضف إلى ذلك موجة السخط والاشمئزاز التي اجتاحت أوربا خوفًا من الشيوعية التي تمخضت بعد سنوات عسيرة من رحم القوى العمالية وهو ما يمكن أن يؤثر بالسلب على اللبرالية الأوربية وسياسة الرأسمالية التي أضحت أهم معالم وملامح الغرب الأوربي.

والواقع أن الخوف لم يكن يقتصر على ميلاد الفكر الشيوعي وذيوعه وانتشاره في قلب أوربا، بل كانت هناك حالات مخاض لولادات أخرى في روما تنذر بقدوم مولود ونزعة متطرفة اشتهرت فيما بعد بالفاشية فيما كانت برلين هي الأخرى على موعد لاحق بمولود ذي طباع متغطرسة سمي فيما بعد بالنازية الأمر الذي

يعكر صفو المياه الرائق في أوربا، وهي المخاوف التي ثبتت هوس أصحابها وتأكد مدى عبقرية الذين حذروا منها.

❁ ❁ ❁

ولأن الأمر في روسيا البلشفية خارج حدود السيطرة فقد تحركت القوى الغربية بالتعاون مع اليابان من خلال إرسال قوات عسكرية إلى عدة جبهات في ناحية الشرق وبالتحديد في مناطق مورمانسك وأركانجل وفلاديفوستك وقد تذرعت دول الحلفاء بأن تحركاتها الفجائية إنما جاءت في إطار فرض حماية الأسلحة والمعدات والآلات الحربية التي تسلمتها روسيا القيصرية خلال الحرب العالمية الأولى.

ولم يكن ذلك كذلك بالطبع حيث فطن لينين وأنصاره أن الهدف من هذه الحشود العسكرية إنما ترمي إلى تضييق الخناق على حكومة الثورة ومحاولة إجهاضها، وتعظيم القوى المضادة للثورة وفي طليعتها - حركة الروس البيض-

وهكذا كانت بدايات حكم الزعيم فلاديمير لينين لا تخلو من صراع وتصادم مع قوى الخارج والداخل وهو ما دفع بالزعيم لينين للمضي قدمًا دون إبطاء في توطيد أواصر وتكريس قواعد وأعمدة المذهب الشيوعي داخل البلاد قبل أن ينفرط عقدها بفعل التدخلات الغربية السافرة، ولا أدل على ذلك من محاولة بولندا في يناير عام ١٩٢٠ من احتلال أوكرانيا لولا صمود الشعب ودعم الثورة لتمكنت بولندا من بسط نفوذها.

ولعل المحاولة البولندية التي باءت بالفشل كانت وراء سعي لينين وأنصاره لوضع خطة مستقبلية تهدف إلى تصدير أفكار الثورة الشيوعية حتى تتكفأ هذه

البلدان على مقاومتها عملاً بالمبدأ العسكري الشهير «الهجوم خير وسيلة للدفاع».

والواقع أن تروتسكي الذي كان داهية الحزب ومفكره الاستراتيجي من أبرز الذين دعوا مرارًا منذ نجاح الثورة إلى تصديرها إلى خارج البلاد من أجل زعزعة الاستقرار داخل تلك البلدان، ومحاولة خلق امتداد شيوعي يجتاز قلب القارة الأوربية ولا بأس من انطلاقه إلى بقية أنحاء العالم.

كما كان الهدف أيضًا من هذه الدعوة هو بناء جدار عازل بين روسيا من جهة، وخصومها الغربيين من جهة أخرى عبر تصدير المذهب الشيوعي لدول الجوار لروسيا حتى لا تكون هدفًا مباشرًا للغرب الإمبريالي.

وعلى ضوء تلك التوصيات التي وردت في الأبحاث والدراسات التي صاغها تروتسكي وبعض عباقرة الحزب فقد أطلق الحزب شارة البدء لتمرير المذهب الشيوعي إلى أوربا من خلال التواصل والتعاون سرًا مع عمال المصانع الأوربية تلك الطبقة التي يعتمد عليها الحزب الشيوعي، وأمام الحرب الأيديولوجية الوليدة التي أربكت حساب صناع القرار السياسي في أوربا الغربية تصاعدت حدة الأزمة بين الفريقين وراح الغرب الإمبريالي يشن حربًا ضروسًا ضد البلاشفة عبر فرض حصار اقتصادي من أجل تجويع الشعب الروسي وتركيع قادته وزعمائه دون اللجوء إلى إطلاق رصاصة قد تؤدي إلى نشوب حرب طويلة لا تحتملها أوربا التي ما زالت تلعق مرارة الحرب العالمية الأولى التي استنزفت مواردها وطاقاتها وجنودها رغم أن النصر كان حليفها.

وكان لهذه الحرب الاقتصادية تداعيات خطيرة كادت تعصف بحكومة الثورة،

وتطيح بها لولا أن الشيوعيين قد أشاعوا أن القيصر على وشك أن يعود مرة أخرى للحكم عبر دبابات الغرب الأوربي، وأن زمن القياصرة بات قاب قوسين أو أدنى ما لم تلتف قوى الشعب الروسي حول حكومة الثورة وتتضافر جهود طبقاتها المختلفة لمواجهة التحدي الخطير الذي بات كالأفعى تلتف حول عنق روسيا لخنقها!

والواقع أن الحزب الشيوعي بزعامة لينين قد تمكن من إشاعة المخاوف لدى الشعب الروسي ضمانًا لكسب تأييده إلى صفوف الحزب وهو ما جرى بالفعل حيث زحفت الجماهير الروسية تهتف بحياة لينين وتندد بسياسة القيصر وزمن حكمه البغيض.

لكن العناد الأوربي ما كان ليتراجع أمام مخطط تروتسكي الذي استهدف زعزعة الاستقرار في القارة الأوربية حيث إن الحرب الأهلية التي كانت قد اندلعت بين القوى الثورية والقوى المضادة لها التي تقودها حركة روسيا البيضاء أدت إلى إهدار طاقات وتبديد موارد الشعب الروسي، وتراجع النمو الاقتصادي، وتوقف حركة التجارة الخارجية، وتعطيل أدوات الإنتاج، وإتلاف المحاصيل، وهي الغايات التي خططت لها أوربا ردًا على مخطط تروتسكي.

وبالطبع أدت هذه النتائج إلى انتشار مجاعة هائلة داخل الدولة الروسية صاحبتها موجات متكررة من الاحتجاجات والتظاهرات التخريبية الداعية لعزل حكومة الثورة البلشفية.

ولما أدرك لينين خطورة الأوضاع ومغبة الصدام داخليًا مع القوى المضادة للثورة والموالية للغرب الإمبريالي وما قد ينجم عن الصراع مع القوى الخارجية

لاسيما مع بولندا المدعومة من القوى الغربية من شأنه أن يعرقل خطى الثورة نحو ترسيخ قواعدها وتثبيت أركانها وهو أمر محفوف بالمخاطر الجسيمة.

من هنا قرر لينين اللجوء إلى اتباع سياسة المهادنة، وتبريد الأحداث الملتهبة، وتجميد أية أنشطة معادية للغرب، وهو ما أدى إلى وقف القتال مع بولندا، وإبرام معاهدة ريجا في مارس ١٩٢٠ تقضي بوقف إطلاق النار ،وتبادل السفراء مرة أخرى، واحترام الحدود بينهما، ومبادلة أسرى الجانبين ثم الاتفاق على إبرام معاهدة أخرى حال إتمام بنود الأولى لتعميق العلاقات التجارية بينهما، وهو ما خفف من حدة الأزمة الاقتصادية التي اجتاحت روسيا وهددت استقرارها.

ولم يكن ذلك فحسب، بل راح لينين بدهائه يبرم معاهدة صداقة مع تركيا دفعت البلدان إلى فتح القنوات التجارية بينهما، وأعقب ذلك التوقيع على معاهدة أخرى مع ألمانيا في عام ١٩٢٢، وكان من نتاج هذه المعاهدة فتح قواعدها الجوية لتدريب الطيارين الألمان، وعلى ضوء تلك المستجدات أبدت لبريطانيا رغبتها في طي طفحة الماضي، وفتح صفحة جديدة تبرهن على صدق نواياها نحو روسيا عبر عودة السفراء بين البلدين، ثم تبع ذلك عودة فرنسا وإيطاليا وهولندا والنمسا.

لقد أسفرت جهود لينين، وسياسته الجديدة إلى تهدئة الأوضاع الاجتماعية واستقرار الأحوال الاقتصادية، وتخفيض أسعار السلع التي كان قد بلغت حدودًا غير مسبوقة فضلاً عن توافر السلع بعد فترة من اختفائها واقتصار بيعها على أثرياء البلاد عبر تجار السوق السوداء، أضف إلى ما سبق أن الإنتاج الاقتصادي والزراعي قد عاود نشاطهما وعادا إلى معدلاتهما الطبيعية، والمطلوبة، بل إن

هناك فوائض اعتمدت عليها الدولة في تصديرها إلى خارج أوربا لتعميق أواصر الصداقة مع أوربا تجنبًا لصدامات لا تتحملها الثورة في تلك المرحلة.

وكان من نتاج سياسة لينين أيضًا أن نالت ثورته اعترافات نحو ست حكومات اعترافًا رسميًا، واثنتا عشرة حكومة اعترافات معززة بالآليات البروتوكولية، كما أن بعض الأقاليم الروسية التي كانْ تخضع للإدارة اليابانية قد عادت إلى أحضان الدولة السوفيتية أثر نشوب أزمة سياسية عنيفة بين اليابان من جانب، والولايات المتحدة الأمريكية من جانب آخر.

وهكذا توسعت وامتدت أطراف وأوصال الدولة السوفيتية حتى باءت إمبراطورية ضخمة هائلة بفعل سياسات فلاديمير التي لم تكن تخلو أحيانًا من استخدام القسوة والعنف والبطش والقمع، والقهر، والتنكيل، بل والقتل والسحل في أغلب الأحيان لا سيما وأن أسلوب لينين في إدارة شؤون البلاد اعتمد إلى حد كبير على انتهاك حقوق الجماهير السوفيتية بواسطة الحديد والنار حتى صارت الكلمة العليا لمجلس السوفييت الأعلى الذي يترأسه لينين.

ويروي خصوم الثورة البلشفية ومعارضي سياسة لينين أن هناك ملايين العمال والمزارعين والوسطاء بين النبلاء والمزارعين أو ما اصطلح على تسميتهم بـ (الكولاج) قد تعرضوا لبطش الثورة البلشفية، حيث إن الثورة كانت قد تعرضت لأزمة اقتصادية طاحنة عام ١٩١٨ الأمر الذي دعا لينين إلى ارتكاب مذابح إبادة جماعية للكولاج ورجال الأعمال وأعضاء الأحزاب والكولاج والمستغلين لثروات وطاقات وموارد الأمة الروسية.

لم تكن تلك الإجراءات التي اتخذها لينين لإنجاح ثورته الحمراء فحسب، بل

إنه كان قد أطاح بأصحاب رؤوس الأموال من ملاك الأراضي ورجال الأعمال فضلاً عن أنها أغلقت وصادرت جميع الأحزاب الروسية باستثناء الحزب الشيوعي (البلاشفة) الذي ظل متربعًا على أريكة السلطة جاثمًا على أنفاس الأمة حتى عام ١٩٩١ دون أن ينازعه في ملكه أو يصارعه في حكمه كائنًا من كان.

وقد علل لينين لجوئه إلى تلك الإجراءات القمعية بقوله: إن الضرورة القاسية هي التي كانت تدفعني وتحرضني لارتكاب مثل ذلك.

لكن لينين كان يتطلع دائمًا إلى الثورة الشيوعية العالمية، بيد أن تجربة لينين والتحديات التي أحاطت به لم تؤهله لدفع عجلات الثورة للانطلاق خارج حدود بلاده كما كان يحلم ويأمل.

وعاب البعض على لينين أن كتاباته تعارضت مع سياساته العملية، وأن ما أورده من نظريات على الورق لم يكن سوى محض خيال تعذر تفعيله على أرض الواقع، ربما لاعتماد لينين على ما جاء في أدبيات زعيم الشيوعيين الملحد كارل ماركس الذي كانت نظريات وأفكاره تجسد معان ومفاهيم ثورية أراد تطبيق نظرياته على المجمع الغربي فقط دون غيره حيث إنه حرص على شرح وعرض تفصيلي للنظرية الشيوعية وكيفية ممارستها والأخذ بها، وهو ما أدى إلى اصطدامه مع الواقع حيث إن ظروف وزمن تطبيق تلك النظريات يتعارض مع وقت صياغتها في القرن التاسع عشر، بينما تفعيلها على أرض الواقع جرى في الثلث الأول من القرن العشرين ثم سرعان ما تبين فشلها وإخفاقها في تحقيق مطالب وأمنيات الفرد والمجتمع على حد سواء.

وغني عن البيان أن الشعوب السوفييتية ومعها البلدان التي دارت في فلكها قد تكبدت خسائر فادحة، وظلت لا تقوى على التحرك قيد أنملة إلى الأمام بسبب القيود التي وضعتها سياسة البلاشفة الاستبدادية فضلاً عن فشلها في الاعتماد والتركيز على تعظيم دور القطاعات والمؤسسات والمصالح العامة الحكومية على حساب المصالح الخاصة ومؤسسات وشركات القطاع الخاص، ومن ثم تجلت الفروق المالية والاجتماعية والترفيهية والمعنوية بين الفرد الشيوعي أو مواطن الدولة الشيوعية، والفرد الذي يعيش تحت مظلة الرأسمالية أو الليبرالية مع ضرورة الأخذ في الاعتبار أن للنظام الرأسمالي مفاسده ومصائبه إذا ما أطلق العنان لأصحابه ورجاله دون ضوابط وتشريعات صارمة وحازمة تلزم الرأسمالي المساهمة في تنمية المجتمع، وإعلاء شأن أبنائه بواسطة حزمة تشريعية ثابتة لتزمة باستقطاع جزء هائل من أرباحه ومكاسبه لصالح الدولة لخدمة المجتمع من حيث بناء شبكة خدمية جبارة يستفيد منها جميع المواطنين على حد سواء.

أضف إلى ذلك إلزام النظام الليبرالي أو الرأسمالي أغنياءه بضرورة سداد نسب محددة من أرباجهم لصالح الجمعيات والمؤسسات الخيرية، وذلك عبر سلسلة من التحفيزات التي تتخذها الحكومة لتشجيع تلك الممارسات من خلال إعفاءات ضرائبية وامتيازات اجتماعية، وتبجيل شعبي يعمل على توسيع نطاق تلك السياسة.

لكن على أية حال فالإسلام لا يمنع الملكية الخاصة لكنه يعتمد في الأساس على أهمية تكريس مفاهيم العدالة الاجتماعية وغرس وتفعيل معنى التكافل

الاجتماعي عملاً بماجاء في القرآن الكريم:

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾.

كما لا يمانع الإسلام أيضًا في تحمل الدولة لمسؤوليات ومهام المؤسسات الخدمية التي تصب في نهاية المطاف لصالح المجتمع كالقطاع التأميني والصحي والطرق، والمواصلات، والشرطة لأهميتها الاستراتيجية.

الشاهد أن النظرية التي تبناها ماركس وروج لها لينين وسوقها ستالين ومجلس السوفييت الأعلى قد تحطمت على صخرة الفقر والاحتجاج الشعبي الرهيب الذي كان قد اجتاح أوربا الشرقية التي كانت على موعد مع الزعيم ميخائيل جورباتشوف آخر زعماء ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي لتتحقق مطالب شعب روسيا البيضاء في أحقيتهم في الملكيات الخاصة سواء كان ذلك في القطاع الزراعي أو الصناعي أو حرية التعبير أو الاستقلال والحصول على الحكم الذاتي ولتذهب نظرية كارل ماركس وتجربة لينين إلى الجحيم غير مأسوف على أي منهما لما ارتكبته النظرية من تهميش لذاتية الفرد وتعطيل للطاقة الإبداعية، وتجميد نشاطاته الذهنية فأصبح خاملاً كسولاً، لا يبدع ولا يبتكر عملاً بنظرية ماركس التي تدعوه للذوبان في مجتمعه العمالي أو الزراعي ليلقي بالمسؤولية على كاهل الحزب والدولة التي كان ترضعه من ثدييها منذ مولده، وحتى رحيله عن الدنيا، ومن ثم كم عانى أبناء الطبقات العمالية وموظفي القطاع العام حين اضطرت ظروف دولهم لتسريحهم ضمن سلسلة من الإجراءات الإصلاحية المسماة (بالبروسترويكا) ذلك الشعار الذي رفعه جورباتشوف لتصفية القطاع العام...

كان العمال والموظفون لا يستطيعون التخلي عن وظيفتهم حتى بعد حصولهم على مكافأة المعاش المبكر لأنهم لم يعتادوا من قبل على الاعتماد على أنفسهم، أو مجرد التخلي عن أثداء الدولة والفطام عنها.

الشاهد أن التجربة الماركسية لم يكتب لها النجاح لأنها اعتمدت على الاستبداد والقهر، والقمع، ولو أنها قد أرخت قبضتها لكانت قد تغيرت أحوال تلك المجتمعات وتبدلت أوضاعها بدلاً من تخلفها الرهيب لصالح الفرد والمجتمع الأوربي الليبرالي الذي كانت تفصله مئات السنين بينه وبين المواطن الشيوعي ولا أدل على ذلك من أن أوضاع مواطني ألمانيا الغربية ونظراتهم من ألمانيا الشرقية، ومدى لهفة وشغف وتحرق المواطن الألماني الشرقي للهرب إلى ألمانيا الغربية بينما المواطن الغربي لم تكن تساوره مثل هذه المشاعر وتلك الأحاسيس على وجه الإطلاق.

على أية حال بغض النظر عن نتائج التجربة الشيوعية في روسيا فقد نجح لينين في لم شمل الإمبراطورية السوفيتية ووضعها في مصاف كبريات الدول العالمية بغض النظر عن الخواء الذي شهدته الدولة أو أنها كانت مجرد عملاق من زجاج.

أما لماذا فشل في تصدير ثورته إلى بقية بلدان أوربا زمن بقائه على أريكة الحكم فأظن أن ذلك مرده لغياب حجم وقوة الطبقة العمالية في أوربا لا سيما وأن الثورة العمالية الروسية لم يكن لها مثيل ربما تكرر في برلين على يد النازي، وفي روما على يد الفاشي، بيد أنه لم تكن ثورات عالمية بقدر ما كانت محصورة داخل نطاقها الإقليمي حيث ظلت فاشية موسوليني قابعة داخل أسوار إيطاليا،

كما أن نازية هتلر رغم دخولها الحرب العالمية الثانية بيد أنها كانت هي الأخرى لا تملك النظرية العالمية التي امتلكتها الشيوعية حيث كانت الفاشية والنازية تدعو في أدبياتهما إلى تعظيم الفرد الألماني، والإيطالي على جميع شعوب الأرض، فضلاً عن دعوات أخرى تضمنتها الحركتان تفوح منها روائح عنصرية فجة، وقميئة لا أظن أن الفكرة الشيوعية تضمنتها نظريًا بأي حال من الأحوال، رغم امتعاضي من الفكرة الشيوعية ذاتها وعدم قبولي لها على وجه الإطلاق.

ولعل ذلك هو ما أدى إلى رفض ستالين مد أواصر الصداقة مع هتلر النازي، ومحاولة الابتعاد عن الفاشي موسوليني، وإن كانت مصالح الاتحاد السوفيتي هي التي ألزمت ستالين بمعارضة تلك الحركتين على أمل التقرب من الغرب الإمبريالي في حدود آمنة تضمن له بقاء واستمرار الفكرة الشيوعي بحيث تكون مساحة التداخل والتعاون والترابط لا تهدد دولاً من الاستقرار المزعوم في بلاد الاتحاد السوفيتي.

لكن رغم هذا السرد التارخي والواقعي فقد تبادر للذهن سؤال أظنه بات ضروريًا ومهمًا.. وهو: أين كان جوزيف ستالين في كل هذه الأحوال؟ وهل كان فاعلاً في أحادث الثورة أم كان على هامشها؟!

الفصل الخامس

وفــاة لينـــين

لا ينبغي علينا أن نفصل بين ملابسات وفاة الزعيم فلاديمير لينين والسؤال الذي طرحناه في ختام الفصل الفائت حيث إن هناك صلة وثيقة بينهما لا يمكن القفز عليهما أو تجاهلهما..

ففي يناير ١٩٢٤ أذيع نبأ وفاة لينين بصورة مفاجئة أثار لغطًا وجدلاً هائلاً داخل الأوساط السوفيتية امتد أثره إلى النطاق العالمي، وكانت الأقاويل تتعلق بتورط جوزيف ستالين ذاك الشاب الثوري الحالم بالتخلص من زعيمه لينين تمهيدًا لاعتلائه السلطة لا سيما وأن منافسه اللدود تروتسكي وأبرز المرشحين لخلافة لينين بناء على وصية أقرها لينين نفسه كان يتلقى علاجًا في مدينة سخالبورط إحدى مدن الجنوب التي اشتهرت بنبوغها وتميزها الطبي عبر استخدام بعض أنواع المياه الطبية.

والحقيقة أن تورط ستالين في وفاة لينين اتهام يفتقد إلى ما يعززه من أدلة

وبراهين وشواهد ووثائق وشهادات محايدة تخلو من شبهة العداء، والخصومة لستالين، أو المحاباة والمجاملة لخصومه، لكن ستالين الصلب، والمتغطرس والحالم، والمتلهف ، والساعي إلى السلطة كانت سلوكياته وتصرفاته وقراراته الدموية العنيفة تبرهن دون دليل إمكانية لجوئه إلى التخلص من لينين على نحو أو آخر للاستئثار بالسلطة، والانفراد بها خصوصًا أن تروتسكي لم يكن متواجدًا في موسكو آنذاك.

ورغم أن ستالين ظل ردحًا من الزمان يبصر في عيون خصومه ونظرات تؤكد ضلوعه، وإدانته إلا أنه كثيرًا ما أشار إلى أن زعيمه كان طريح الفراش طوال العام الأخير الذي سبق وفاته، وهي حقيقة لا يمكن لأحد إنكارها أو الإغفال عنها، وهو ما يدحض الاتهامات التي وجهها له خصومه.

الشاهد أن ستالين باغت العالم بنبأ رحيل لينين إثر صراع مرير مع المرض، وقد تحددت مراسم تشييع الجثمان إلى مثواه الأخير بعد تحنيطه على الطريقة الفرعونية على اعتبار أن الشيوعيين قد اعتبروا لينين زعيمًا حيًا بينهم ومثله لا يموت، ومن ثم تم إعداد وتجهيز جثمانه لتحنيطه، ودفنه في غرفة زجاجية تتحول بمرور الوقت إلى مزار يطوف حوله المواطنين الروس يوميًا، ويتردد عليه السياح الأجانب الذين أبهرهم التقدم العلمي الروسي في مسألة التحنيط الفرعونية!!

وفي صباح يوم الثالث من فبراير ١٩٢٤ خرجت الملايين من أبناء الشعب الروسي لتشييع جثمان لينين وسط بكائيات حارقة ونحيب وأنين وصراخ اهتزت أمامهم أرجاء روسيا بأسها.

أما ستالين فقد تقدم الموكب الجنائزي المهيب، وراح يتصدر قائمة المشيعين التي ضمت كبار رجال الدولة السوفيتية في ذكاء وجسارة لتدشين نفسه خليفة للزعيم لينين غير عابئ بمنافسة تروتسكي الذي كان لينين قد أوصى كتابة بتصبيه زعيمًا للبلاد خلفًا له.

وفي حركة مسرحية درامية ظهر جوزيف ستالين أمام الجماهير الغفيرة التي احتشدت أمام مقبرة لينين ، وقد تجلت معالم الأسى والحزن على وجهه الصارم المتجهم، وبدا لمن حوله كسيرًا مهمومًا لفراق زعيمه الذي تلقى على يديه ما لم يكن قد تعلمه وعرفه من قبل، ثم سرعان ما توجه إلى المنصة التي أعدت خصيًا لغرض في نفسه لكي يلقي كلمة مؤثرة عن حياة وصفات ومواقف ومناقب لينين أبكت جموع المشيعين.

وقف ستالين يخطب راثيًا زعيمه بصوت بدا لسامعيه محشرجًا مخنوقًا مختلطًا غارقًا بالحزن والأسف والأسى ثم ما لبث أن تعالت نبرات صوته، وتدرجة طبقاته حتى كاد يصم الآذان من فرط قوته ووحشيته حيث راح يقول وهو يتفحص بعينيه السوداوين الحضور:

«قبل أن نفترق أوصانا الرفيق فلاديمير لينين أن نحرص ونحتفظ باللقب المشرف (عضو الحزب) ويبقى دومًا طاهرًا، عفيفًا، نقيًا من غير سوء.. ونحن نقسم لك على رؤوس الأشهاد أيها الرفيق الحبيب لينين.. نقسم أمامك وأمام الملايين التي جاءت لتشييع جثمانك أننا لن ندخر جهدًا في طاعة أمرك».

ثم استطرد بعد أن أخرج منديلاً من جيب سترته متظاهرًا بتجفيف دموته، وهي الحيلة التي انطلت على المشيعين السذج ليقول بصوت عال النبرات:

«وأمرنا الرفيق لينين قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ويفارقنا إلى الأبد بغير رجعة أن نعمل سويًا على توطيد أركان ودعائم وحدة الفلاحين، والعمال بشتى الطرق... ونحن أيها الرفيق الحبيب لينين نقسم لك .. نقسم لك.. بأننا لن ندخر جهدًا في طاعة أمرك»..

ومضى ستالين يبدي على مسامع الجموع المحتشدة مآثره وبطولاته وسنوات ومراحل نضال وكفاح لينين وكيف أنه استطاع أن يعتلي عرش السلطة من أجل توفير حياة كريمة وعيشة هانئة للشعب السوفيتي من خلال تفعيل الوصيات والإرشادات الماركسية التي وردت ضمن أدبيات كارل ماركس..

كانت مظاهرة الموكب الجنائزي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن جوزيف ستالين قد أحكم قبضته على مقاليد السلطة، وأن تروتسكي قد انزوى قسرًا أو طوعًا أمام وحشية ستالين الذي كان قد تولى بنفسه ترتيب وتجهيز عملية انتقال السلطة بصورة آمنة وسلمية دون أن يحدث ما يعكر صفوها أو يطيح باستقرار البلاد وذلك من خلال اجتماع عاجل لبعض رموز مجلس السوفييت الأعلى لكي يلقي على مسامعهم ما ورد في وصية لينين.

تجدر الإشارة هنا قبل أن نخوف في مسألة وصية لينين أن نشير إلى أن جوزيف ستالين كان قد تدرج في العديد من المناصب قبل رحيل لينين، حيث بدأ بعد أن نال عضوية الحزب ناشطًا ومؤثرًا مما مكنه من انضمامه عضوًا في اللجنة المركزية ثم تدرج إلى منصب مدير رئيس مجلس إدارة جريدة البراق (كبرى الجرائد السوفيتية وأوسعها انتشارًا آنذاك) ثم انضم إلى عضوية المكتب السياسي وهي العضوية التي سبقه إليها لينين وتروتسكي واضطلع بعدها بدور

سمي في حينه وصف المفاهيم الحزبية الشيوعية بـ (قوميسير الشعب) الذي يتولى الإشراف والمتابعة والرصد والرقابة على جميع الأقاليم التابعة لروسيا.

ثم سرعان ما تولى منصب «قومسير للتفتيش» بيد أن أسلوبه الوحشي والدموي كان قد أزعج المحيطين به لتجاوز حدود وصلاحيات منصبه ولم يكن يتوانى في إصدار الأوامر الحازمة لاغتيال خصومه بوجه خاص، وأعداء الثورة على وجه العموم، وهو ما ضاعف من حنق الجماهير الروسية حتى إن لينين نفسه قد امتعض تلك السياسة.

● جرائم الثورة الشيوعية ضد الشعب الروسي:

وصحيح أن لينين لم يكن حملاً وديعًا يميل إلى السلم والسلام لكنه كان ذئبًا، بل نمرًا شرسًا عنيفًا، بل إن النمور لا ترضى أن تتشابه مع لينين لما اقترفه في حق أبناء وطنه الأبرياء.

وللتدليل على ذلك فأن ستالين اقترح على لينين تأسيس منظمة إرهابية تتبع اللجنة المركزية للحزب البلشفي لتصفية خصوم النظام والذين يناصبون العداء للثورة من جانبه رحب لينين بهذا الاقتراح، وقد اشتهرت تلك المنظمة بمنظمة «تشيكا».

ومن أسف فقد أعدمت ٤٨ ألف موظف حكومي ارتابت في نواياهم نحو ولائهم للثورة.

كما أنها أطلقت النار على ١٠,٠٠٠ آلاف مدرس تردد أن بعضهم ألقى على مسامع طلابهم ما لا يروق لقادة الثورة.

كما أنها أعدمت ٤,٠٠٠ آلاف كاهن قيل إن مواعظهم داخل دور العبادة كانت تنطوي على غمز ولمز وتلميحات حول أداء الثوار والثورة.

كما أنها أعدمت ٤٨ ألف رجل شرطة أفادت المعلومات أن بعضهم لم يكن على استعداد لتفعيل أوامر لا تخلو من القتل والسحل لأبناء الشعب الروسي المسكين الذي كان يئن في عصور القياصرة؛ ولا يزال يكتوي بنيران الثورة البلشفية الظالمة.

ولم يكن حصاد المنظمة يقتصر على مثل هذه الأعداد بل إنها قتلت ٢٦٠,٠٠٠ ضابطًا من ضباط الجيش دارت حولهم الشكوك والظنون حول احتقانهم من سياسة الثورة البلشفية التي انتهجت الرصاص سبيلاً للحوار بين السلطة الغاشمة والشعب المسكين.

كما أنها قتلت أيضًا ١٠٥,٠٠٠ ألف ضابط من ضباط الشرطة فتح رجال المنظمة عليهم النيران للتخلص منهم بحجة رفضهم تلبية وطاعة أوامر قادتهم.

أضف إلى ذلك إعدام عشرة آلاف طبيب وأكثر من ثلاثين كاهن، وكأن الثورة تريد من وراء تلك المذابح الرهيبة والوحشية إلى إخراس جميع ألسنة الشعوب الروسية، وتكميم أفواههم حتى يتسنى للثورة تنفيذ أهدافها دون أن تتعرض لأية مقاومة.

والواقع أن الثورة مضت في طريقها بعد هذه الأحداث المفجعة لا يتجاسر كائنًا من كان على إبداء معارضته لانتهاج مثل هذه السياسات خوفًا من بطش هذه المنظمة التي أسسها السفاح ستالين بدعم من الانتهازي الدموي فلاديمير لينين الذي سلب أراضي ٣٠ مليون فلاح واستول على مصانع رجال الصناعة دون

أن يجرؤ أحد على إظهار استياءه أو إبراز أي إشارة تبرهن على امتعاضه.

لكن قد يحق للقارئ أن يتساءل إذا كان لينين هو رائد الوحشية الستالينية، ومعلم هذه السياسة الدموية فلماذا أبدى انزعاجه حين تنامى لأسماعه استمرار ستالين في انتهاج سياسته الدموية والقمعية؟!

والواقع أن لينين لم يكن قد انزعج حرصًا على دماء شعبه المسكين أو خوفًا على حياة واستقرار هذا الشعب الذي آزره في الثورة على القيصر، بل كانت علة انزعاجه وثيقة الصلة بإدراكه أن ذلك من شأنه أن يطلق لستالين الحبل على الغارب في انتهاج ما يروق له من سياسات وتصفية من يشاء من خصومه أو منافسيه.

كان لينين يخشى أيضًا أن تتوسع صلاحيات ستالين ويتضاعف نفوذه على حساب لينين وخليفته تروتسكي الذي أدرك مدى خطورة السياسة الستالينية القمعية لا سيما وأن هناك من كان يبارك تلك الخطى الستالينية الخطيرة فضلاً عن أنها قد لاقت هوى في صور بعض أبناء الشعب، حيث اعتمد ستالين على تبرير سياسته الغاشمة في تضليل أبناء الأمة وخداعهم عبر وسائل الإعلام من خلال معلومات مغلوطة وخادعة، وكاذبة ولا تخلو من افتراءات.

ولأن المنظمة الدموية (تشيكا) التي أسسها ستالين لتصفية خصوم الثورة ومعارضيها قد بلغ عدد أعضائها مائة ألف تميزوا جميعًا بأجساد قوية متينة ومشاعر باردة وضمائر ميتة، وعيون جاحظة، وقلوب قاسية، ومهارة فائقة في اصطياد الخصوم، وكفاءة بارعة في تصويب بنادقهم، وقوة باطشة في تعذيب ضحاياهم، والتمثيل بجثثهم لترويع أقاربهم وجيرانهم وأصحابهم.

إذن نعود فنقول إن لينين قد أسند إلى ستالين منصب سكرتير عام الحزب الشيوعي بعد أن كان قد أقصاه إلى أحد المناصب الإدارية عقابًا له على إصداره أومر بتصفية بعض كوادر الحزب دون الرجوع للجنة المركزية أو المكتب السياسة أو حتى التشاور مع لينين.

عاد ستالين وعينه سكرتيرًا عام في ١٩٢٢ وربما كان ذلك إعجابًا منه بأدائه وطموحات وقدرات وتطلعات هذا الشاب المتغطرس المتوحش بيد أن ذلك لم يكن أمرًا مؤكدًا حيث كان لينين يميل ويجنح إلى جانب تروتسكي وأنصاره لا سيما وأن تروتسكي كان من منظري الحزب البلشفي، وكبار مؤسسيه وأحد قادة ثورته الكبرى وممن يتمتعون برؤية ثقافية رفيعة المستوى.

كان لينين بالفعل يقدر قيمة تروتسكي ويثمن رجاحة عقله، ولا يغفل عن قيمته الفكرية والثقافية، والسياسية، والتنظيمية، ومشاعره الثورية، أضف إلى ذلك أن تروتسكي كان أديبًا وصحفيًا ذو قلم رشيق ومتألق ورائع وجذاب حتى إن لكتاباته الصحفية تأثيرات على الرأي العام سواء كان ذلك في سنوات النضال داخل روسيا التي سبقت اندلاع الثورة أو مراحل المنفى التي شهدت أروع وأعظم كتاباته حتى التف حولها الجميع.

لم يكن تروتسكي مجرد كاتب ثوري بقدر ما كان زعيمًا يملك قدرة بارعة في إشعال الثورة وإعداد مسرحها وتجهيز رجالها، وترتيب وتنظيم مطالبها، وأهدافها حتى إن لينين ما كان يستطيع أن يعمل بمنأى عنه.

على ضوء ذلك كان ستالين يدرك مد خطورة تروتسكي على مسيرته وطموحاته وأحلامه خاصة وأن ستالين كان يترقب موت لينين بين لحظة وأخرى

حيث كان قد أعد العدة للقفز على منصب لينين حتى روى خصومه من أنصار تروتسكي أن يبعث ببرقية إلى تروتسكي في المصحة الاستشفائية التي كان يتلقى بداخلها العلاج يبلغه خلالها بنبأ وفاة لينين وأنه أخبره بموعد تشييع جثمانه بصورة خاطئة حيث أشار إلى موعد بعيد حتى لا يتمكن تروتسكي من حضور الجنازة، ريثما يتمكن ستالين من إتمام مهمته.

ولأن لينين كما أشرنا كان يميل إلى تنصيب تروتسكي خليفة له وإزاحة ستالين الذي لم يعد يأبه بتعليماته ولا يبالي بتوجيهاته فقد ارتقب الشعب الروسي ما سوف يسفر عنه هذا الصراع المحموم بين أقوى رجلين داخل الاتحاد السوفييتي حيث يتمتع تروتسكي بتأييد لينين، بل إن وصية لينين المكتوبة أشارت صراحة إلى أحقيته في خلافته في حين يتميز ستالين بالصلاحيات الواسعة والشعبية الكثيفة داخل الحزب.

ولأن لينين كان يخشى من مغبة هذا ا لصراع المبكر على السلطة فقد أرسل إلى مؤتمر الحزب مزكرة سميت في حينها (وصية لينين) جاء بها :

(أظن أن العنصر الرئيسي لاستقرار نظام الحكم ينبغي ألا يغفل عن أهمية مباركة ومؤازرة كبار القادة من أعضاء لجنتنا المركزية لا سيما ستالين وتروتسكي.

وفي ظني أن علاقة بين هذين الرجلين تنذر بخطر شديد على وحدة الحزب وتماسكه، وربما كان من الممكن تجنب الانقسام بمضاعفة عدد أعضاء اللجنة المركزية وزيادته من ٥٠ إلى ١٠٠).

ويضيف لينين في مذكرته أو وصيته التي بعث بها إلى مؤتمر الحزب:

(إن الرفيق ستالين بعد أن تولى منصب سكرتير عام الحزب قد ركز سلطة واسعة في يده ولست على يقين إذا كان يستخدم صلاحيات هذا المنصب بما ينبغي من حيطة وحذر أم لا؟

من جانب آخر فإن الرفيق تروتسكي لا يتمتع فحسب بكفاءته الشخصية فهو على أية حال وأنا أثق في ذلك أكفأ أعضاء اللجنة المركزية على الإطلاق فضلاً عن أنه يتميز بثقة هائلة بنفسه، كما أنه من أكفأ من يتولى الشؤون الإدارية في كل موضوع.

إن هذا ا لاختلاف في خلق الرفيقين اللذين يعتبران أكثر الأعضاء كفاءة داخل اللجنة المركزية قد يسبب في إحداث شرذمة وفرقة داخل الحزب فإذا تقاعس الحزب عن اتخاذ ما يلزم إزاء هذا الأمر فقد نتعرض جميعًا لما لا يمكن تلافيه).

وعلى الرغم من أن المذكرة التي ألقيت على مسامع أعضاء الحزب قد أشادت بكفاءة تروتسكي على حساب ستالين فقد مضى في طريقه غير عابئ بما جاء في تلك المذكرة على اعتبار أنه لا يثق في أن هذه المذكرة هي من بنات أفكار لينين خاصة وأن ستالين كان يعرف أن زوجة لينين تميل بطبعها مع زوجها إلى فريق تروتسكي وأنها لا يروق لها قط منذ أن ارتبط بزوجها لينين.

والحقيقة أن السيدة كروسكيا كانت بالفعل تأمل في تولية تروتسكي رئاسة البلاد خلفًا لزوجها لإيمانها الشديد بولائه لأفكار لينين وإخلاصه له فضلاً عن أنه أحد العباقرة الأفذاذ داخل الحزب.

وللتأكيد على ذلك فقد أرسل لينين ملحق للمذكرة الأولى أملاها على زوجته بعد أن ترامت لمسامعه أنباء خطيرة تفيد ارتكاب ستالين لسلوكيات رهيبة

لأصدقائه القدامى في مسقط رأسه من ضرب وسحل وفصل من وظائفهم بعد أن أخبره أحد رجال منظمة تشيكا أنهم يتندرون على سنوات طفولته وينالون من سمعة والدته، وهو ما دفع ستالين للعودة إلى بلدته وراح يعصف بأهلها وخاصة زملائه القدامى.

كا نهذا الحاديث قد أثار عاصفة من الغضب لدى الرأي العام مما اضطر لينين للتعبير عن استيائه عبر ملحق بعث به إلى مؤتمر الحزب جاء فيه بالنص:

(إن الرفيق ستالين عنيف جداً.. وهذا العيب.إن كان محتملاً لبقائه بيننا بيد إنه يتحول إلى أمر لا يطاق إذا ما قام بمهام وظيفة السكرتير العام للحزب.

من هنا أقترح عليكم أيها الرفاق أن نسعى جميعًا من أجل إيجاد وسيلة ملائمة لإبعاده عن تلك الوظيفة حتى يتسنى لنا ترشيح رجل آخر يختلف اختلافًا كليًا عن ستالين..

نريد أيها الرفقاء رجلاً يتمتع بصبر وفير وإخلاص شديد، وأدب رصين، وعناية عظيمة لحقوق زملائه.. رجل لا يتعرض لزملائه و أصحابه وجيرانه.. رجل لا يسعى لاهثًا وراء نزواته .. أيها الرفاق .. قد تبدو لكم هذه الصفات تافهة لا معنى لها.. لكنني كلي يقين أننا لو شئنا أن نتجنب الانقسام في داخل الحزب وأيضًا من جهة العلاقات بين ستالين وتروتسكي التي أشرت أليها في المذكرة السابقة، تعتبر هذه الصفات التي قد ترونها تافهة هي المحرك الأساسي والدافع الرئيسي لحصد نتائج مثمرة وطيبة).

أمـا اللافت للنظر في هذه الوصـيـة أن لينين لا يملك بمفـرده حق عـزل أو إقصاء ستالين من منصبه، ومن ثم راح يقترح على رجال الحزب البحث عن آلية مناسـبة للخـروج من هـذا المأزق، وهو مـا يبـرهن على أن لينين قـد فطن لنفـوذ ستالين دون أن يستطيع التحرك لإزاحته والتخلص منه.

المهم أن مدام كروسيكايا قد بعثت ببرقية بخطاب اعتبره الحزب الشيوعي وثيقة ذات أهمية قصوى وهي محررة في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر من عام ١٩٢٢ تسلمها رئيس المكتب السياسي للحزب الرفيق كامنييف، وقد أكدت في فحوها ما يلي:

(الرفيق كامنييف.. رئيس المكتب السياسي للحزب السادة الرفقاء، أعضاء الحزب:

ترتب على الخطاب أو الإفادة التي ألحقها فلاديمير لينين بخطابه الرئيسي ردًا على ما سلكه جوزيف ستالين ترتب عليه أن سمح ستالين لنفسه ليلة أمس أن ويخني بصورة غير معهودة جاوز خلالها الخطوط الحمراء حتى إنني وزوجي لينين لا نزال في دهشة لا تنتهي حتى كتابة هذه الرسالة..

إنني أود أن أقول أيها الرفقاء إنني ولينين قمنا باستئذان الأطباء من أجل السماح لنا بكتابة هذا الخطاب الذي ينطوي على ما يتطلع إليه الزعيم).

وتضيف السيدة كروسيكايا زوجة فلاديمير لينين:

(إنني لست عضوًا حديث العهد بالحزب كما أنني عبر ثلاثة عقود مضت كنت فيها زوجة للزعيم ولا أزال لم يتناهَ لسمعي من أي أحد من الرفقاء كلمة واحدة

تثير حنقي، وإنني أود أن أؤكد لكم أن رسالة الحزب وجهود لينين ليست غالية على ستالين بقدر ما هي غالية عندي أيضًا لا أريد شيئًا يا سادة أكثر من أن أخلد للراحة وهدوء الأعصاب، وضبط النفس، وإنني لا أعرف أكثر من أي طبيب ما يحتاجه الزعيم لينين، وما يجب طرحه و ما لا يجب..

إذا كان جوزيف ستالين قد أساء حديثه معي متذرًا بأنني وشيت لدى لينين بما أقدم عليه من مهازل في مسقط رأسه فإنني أؤكد بما لا يدع مجالاً للشك لديه ولغيره إنني أعرف ما الذي يثير أعصاب لينين وما الذي يهدئ منها..

وما من شك أيضًا أيها الرفاق أنني أعرف ذلك جيدًا بأكثر مما يعرفه جوزيف ستالين بالطبع..

من هنا فإنني اضطررت للجوء إليك وإلى جريجوري الرفيق (هو نفسه الرفق زينوفييف) لأطلب منكما على اعتبار أنكما أقرب رفيقين للزعيم لينين أن تحمياني من تدخلات ستالين الفجة والسافرة في أدق خصوصياتي، ومن ترصده وتجسسه على وتهديده لي..

ولست أشك في طبيعة القرار الجماعي الذي سوف تتخذونه في هذا الشأن لجنة المراقبة ا لتي يستخدمها ستالين في تهديدي.

ورغم ذلك فإنين لا أملك من القوة أو الوقت ما أبدده عبثًا في جدال لا طائل من ورائه سوى إثارة وافتعال الأزمات والمشكلات إنني امرأة في ربيع العمر تنشد حياة آمنة هادئة مطمئنة مستقرة، ولا تريد قط أن تصاب بالضيق والاضطراب والتوتر)..

وفي نفس السياق أرسل لينين خطابًا إلى ستالين نفسه حرص الأستاذ فرج جبران على نشر تفاصيله حيث تلقى المكتب السياسي الخطاب على اعتبار أن ستالين عضو بالمكتب السياسي ، وهي حيلة لجأ إليها لينين لفضح ستالين وتقزيمه على رؤوس الأشهاد.

وقد ورد في هذا الخطاب ما يلي:

(عزيزي الرفيق ستالين:

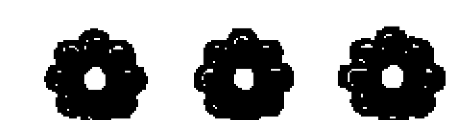
لقد سمحت لنفسك أن تتحدث في وقاحة إلى زوجتي بواسطة الهاتف، وكنت قد أسأت القول إليها.

وبالرغم من أن زوجتي قد تعاهدت معك على طي هذه الصفحة السوداء فإن الرفيقين زينوفييف وكامينييف قد وقفا منها على ما جرى.. ولست أرغب بصدق في أن أصفح عنك بسهولة على ما حدث وما صدر منك ضدي..

وأنا لست في حاجة إلى أن أقول لك إنني أعتبر كل إساءة موجهة إلى زوجتي إساءة موجهة إلى شخصي..

من هنا فقط أرغب في أن أعرف منك.. هل لديك الاستعداد لأن تبادر بالاعتذار لزوجتي أم أنك ستظل على ما أنت عليه الآن لا سيما وأن العلاقة بيننا لا تزال تشهد قطيعة وجفوة لم يشهدها أي منا من قبل منذ أن تعارفنا على بعضنا البعض!

الرفيق لينين



على أية حال ظلت العلاقة على ما هي عليه حيث كان ستالين بغطرسته لا يسعى على نحو أو آخر لإبداء اعتذار شفوي عبر أسلاك الهاتف أو مكتوب عبر رسالة خطية ظنًا منه أن الغلبة لا ينبغي أن تكون لسيدة ترغب في إدارة شؤون البلاد وأحداثها من غرفة نوم يتمدد فيها زعيم طريح الفراش، لا يقوى على الحراك، وينتظر ملك الموت.

ويبدو أن غطرسة ستالين وكبرياءه الأحمق قد ضاعف من كراهية زوجة لينين إليه الأمر الذي دفعها عقب وفاة زوجها لإظهار ولائها وتأييدها للفريق الذي تتزعمه تروتسكي في محاولات جادة من أجل إزاحة وتنصيب تروتسكي ثأرًا وانتقامًا من هذا الذي أساء القول إليه ولم يراع حرمتها ولا مكانتها بوصفها زوجة الزعيم الأوحد فلاديمير لينين معبود الشعب السوفييتي ومعلم الماركسية.

ولأن مدام كروسيكايا تعهدت بشن حرب لا هوادة فيه ضد ستالين فقد بعثت بخطاب إلى الزعيم تروتسكي الذي كان يتأهب لتولي خلافة لينين وسط أنواء عاتية وعواصف جامحة.

وورد في تلك الرسالة ما يلي:

(أكتب إليك لأبلغك أن فلاديمير لينين[1] قبل وفاته بحوالي ثلاثين يومًا كان يتصفح كتابك فتوقف بصورة مفاجئة عند فقرة ناقشت فيها مزايا ماركس ولينين.. وأذكر أنه طلب مني أن أقرأ عليه نص تلك الفقرة ثم سرعان ما عاد يقرأها هو بنفسه مرة أخرى وأود أن أبلغك ما يلي: إن العواطف التي كان يحملها

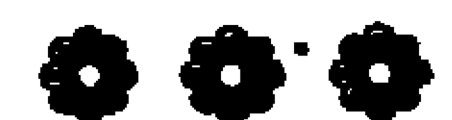
---

(١) نقلا عن كتاب ستالين صفحة ٥٣ للأستاذ فرج جبران.

بداخلها عندما حضرت لزيارتنا في لندن بعد العودة من سيبريا عام ١٩٠٢ لم يطرأ عليها أي تغيير.

وإنني لأتمني لك.. يا ليو دافيدوفيتش صحة حسنة وشجاعة.. وأقبلك»

«ن. كروسيكايا»



الفصل السادس

ستالين .. على رأس السلطة

مضت الأمور على نحو هادئ شكليًا أمام الرأي العام بينما في أعماق اللجنة المركزية والمكتب السياسي جاوزت درجة الحرارة أعلى معدلاتها حيث بلغت حدة التوتر بين الفريقين الرئيسيين حدًا كاد يدفع بالبلاد إلى شفير الهاوية، ولولا أن جوزيف ستالين استطاع الاستئثار بالسلطة والإمساك بمفاتيحها لشهد الاتحاد السوفييتي حربًا طاحنة بين أنصار الفريقين كانت ستجلب ما لا يحمد عقباه لاسيما، وأن الأقاليم الروسية كانت تترقب لحظة صراع سلطوي أو تقلص نفوذ الحزب حتى تتحرر من القبضة التي أحكمها لينين عنوة وقسرًا.

لم يكن جوزيف ستالين الذي قاتل وناضل وكافح ونفي وسجن وعذب وظل هاربًا ومطاردًا وملاحقًا على استعداد للتنازل عن السلطة التي طالما كابد وثابر، وصابر من أجلها لمجرد أن هناك وصية كتبها لينين، وبعث بها زوجته وألحت على أعضاء اللجنة المركزية أهمية الإعلان عن فحوى هذه الوصية حتى يتمكن

تروتسكي من استخلاف لينين لينكمش ستالين ويتقلص نفوذه قبل أن يستفحل خطره.

في أعقاب الانتهاء من تشييع لينين راح جوزيف ستالين يقيم سرادقًا ضخمًا في كل أنحاء البلاد متذرعًا بتأبين لينين، وإظهار مآثره، وإبراز مناقبه في محاولات ماكرة لإيهام الشعب الروسي بأنه حليفه المنتظر وأنه الرجل الذي يحمل في صدره ورأسه تعاليمه وأفكاره ومبادئه، ومناهجه وتجاريه، وأنه فقط الذي لا يزال يدين بالولاء ويتحلى بالوفاء للزعيم الراحل وأنه لن يتخلى عن سياسته، ولن يستغني عن رؤاه ونظرياته وأنه كان الأقرب والأنقى والأوفى والأخلص، وأن الذين يحاولون منافسته في استخلاف لينين إنما هم أفاقون ، ودجالون، ولم يكن أي منهم شيوعي ، أو بلشفي قح على غرار البلشفية اللينية.

كان جوزيف يلوح دائمًا أنه الرجل الأوحد الذي نهل من منابع لينين وارتوى، والذي ناضل معه واكتوى وكافح ولاقى صنوف التعذيب والمنفى من أجل إعلاء راية الحزب، وتعظيم شأنه وتوسيع نفوذه وأنه كان على أتم الاستعداد للتضحية بأغلى ما يملك فداء منه في سبيل رفعة بلاده.

اعتبر ستالين نفسه المتحدث والممثل الوحيد لبيروقراطية الدولة، بل والتي تجسدت جليًا على ملامح ا لحزب وهي بيروقراطية لا تعكس منهجية لينين تلك التي نادت بضرورة تصدير الثورة وتوسيع نطاقها وامتدادها خارج حدود روسيا لتصبح الثورة عالمية تطيح بالأنظمة الليبرالية والرأسمالية العريقة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وبقية بلدان أوربا.

بل لم يكن لينين يمانع في تصديرها إلى الولايات المتحدة الأمريكية تلك

الإمبراطورية الوليدة، والتي سلكت منذ بواكير نشأتها الرأسمالية الإمبريالية، أما تروتسكي فقد كان على خطى الزعيم فلاديمير لينين حيث لم يكن ممانعًا لعالمية الثورة، وانتشارها في الكرة الأرضية انتشار النار في الهشيم لحمايتها في الاتحاد السوفييتي عبر سياج دولي يحول بينها وبين الرأسمالية الإمبريالية.

لكن جوزيف ستالين كان لا يؤمن بعولمة الثورة، وتصديرها لا سيما وأنه بوصفه ممثل بيروقراطية الحزب والدولة إنما أراد أن يؤكد على إيمانه الشديد بمصالح الدولة السوفيتية فضلاً عن حرصه الشديد في كيفية تكريس نظم الحكم داخل البلاد دون المساس بها.

وعلى ضوء مفهوم أو نظرية بيروقراطية الدولة دعا ستالين إلى محاولة تعظيم الثورة داخليًا دون السعي إلى محاولة السعي إلى تصديرها على عكس المفاهيم اللينية التروتسكية.

وحين سئل جوزيف ستالين عن موقف الحزب من تلك البلدان التي تأسست بها أحزاب شيوعية على وشك الانقضاض على السلطة أكد في معرض جوابه أن بمقدور تلك الأحزاب إذا هي استولت على مفاتيح السلطة داخل بلدانها أن تعمل من أجل خدمة الدول الشيوعية الأم (روسيا).

وبناء على ذلك أسس جوزيف ستالين وفريقه ما سمي في حينه بنظرية «الاشتراكية في بلد واحد» على أساس إمكانية تدشين وتفريخ مجتمع يؤمن بالمفاهيم والنظريات الاشتراكية داخل إطار البلاد السوفيتية فقط.

صحيح أن جوزيف ستالين عاد يدعو لتأسيس (الأممية الشيوعية) و(الكومنترن) تلك التي كانت قد أنشئت زمن فلاديمير لنين عام ١٩١٩ حيث إن

تطورات الأحداث وتصاعد حدتها بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي أدى إلى محاولة استخراج هذه النظرية البلشفية من أدراج المكتب السياسي داخل الحزب البلشفي.

المهم أن ستالين بعد مرور أربعة أشهر على وفاة لينين وبعد أن تمكن من تعبئة الجماهير وحشدها لتأييده في صراعه المرير والعنيف مع تروتسكي راح يلقي على مسامع نحو تسعة عشر رجلاً داخل مبنى الكرملين وثيقة لينين بوصفه فقط سكرتير الحزب..

كانت الجلسة تدور في إطار من السرية الشديدة تجنبًا لإحداث شرذمة خارج الإطار الحزبي حتى لا ينتهز خصوم البلشفية الفرصة لإشعال فتيل أزمة السلطة الناشئة.

بالطبع كان تروتسكي في طليعة الحضور الذي أرهف السمع، وبدا متلهفًا على ما سوف ينطق به جوزيف ستالين الذي راح يسجل رأيه الشخصي في مرحلة حكم الزعيم حيث أبدى عظيم امتنانه واحترامه وإيمانه بالراحل لينين متعهدًا بانتهاج سياسته لمن سوف يخلفه، من هنا ظن الحضور أن تروتسكي هو المعني بهذه الإشارة، وأن ستالين الذي سيتلو نص الوثيقة قد اكتشف أن لينين قد أوصى بتنصيب تروتسكي خلفًا له.

لكن ستالين الذي لا يعرف اليأس كما لا يؤمن بالمهادنة ولا يعترف بالمستحيل، ومن ثم لم يدخر ستالين وسعًا في إبراز عضلاته، وإظهار نفوذه داخل هذا الاجتماع الخطير على اعتبار أنه الأهم والأخطر والذي سوف يتحدد من خلاله هوية وشخصية خليفة لينين، وما إن بدأ ستالين في تلاوة الوثيقة حتى ران

الصمت عى الجميع، وخيم السكون على أرجاء القاعة، وانتفخت أوداج الحضور، وراحت الأبصار شاخصة ترصد ملامحه كأنها تسمع ما ينطق .

بينما كان تروتسكي وبعض مؤيديه يحبسون أنفاسهم ينتظرون اللحظة الحاسمة التي سيلقيها ستالين وفق ما هو وارد داخل الوثيقة في سطور طويلة ألقاها ستالين تحدث لينين حول مكاسب الثورة وإمكانية حمايتها وحراستها وما ينبغي اتخاذه مستقبلاً إزاء خصوم الدولة الشيوعية في الداخل وأعدائها في الخارج وكيفية التواصل مع حلفائها وأصدقائها في الخارج الذين ينشدون دعمها بوصفها دولة الثورة الأم و مهد الشيوعية الحمراء.

وبصورة مباغتة نزلت كلمات ستالين على رأس الرفيق تروتسكي ورفاقه كالصاعقة حيث قال جوزيف ستالين بالنص على لسان لينين قاصداً غريمه تروتسكي على وجه الخصوص:

(إن تاريخ تروتسكي وماضيه يبرهن على أنه لم يكن وثيقة الصلة بالبلشفية!!)..

أمام تلك القنبلة التي ألقاها ستالين داخل القاعة بدا تروتسكي فاغرًا فاهه لثوان مشدوهًا جاحظ العينين حتى استرد وعيه المفقود لينهض بعدها صائحًا بأعلى صوته:

- ماذا قلت .. هلا أعدت هذه الفقرة أيها الرفيق جوزيف؟!

كان ستالين الذي انتهج الكذب وسيلة للقفز على السلطة لاستخلاف لينين رمقه ستالين بنظرة لها دلالتها التي تبرهن على شماتته وظفره بالجولة التي

أضحت على وشك الانتهاء لصالح جوزيف ستالين بالضربة القاضية، كان ستالين كما سبق وأشرنا من قبل قد استطاع تدشين دوره وتوسيع نفوذه وتزايد شعبيته داخل الاتحاد السوفيتي وخصوصًا اللجنة المركزية التي كان يراهن على تأييدها له حيث كان تروتسكي يقف خلال تلك الفترة (محلك سر) اعتمادًا على ما سوف يأتي في وصية لينين خاصة، وأن زوجته مدام كروسيكايا قد أبلغته مرارًا بأن لينين قد أوصى صراحة باستخلافه كما أوصى اللجنة المركزية باستبعاد ستالين وتنحيته من جميع مناصبه الحزبية ردًا على وقاحته مع زوجته وتجاوزه لجميع الخطوط الحمراء في العلاقة بينهما.

والشاهد أن ستالين كان قد سعى سرًا إلى تسريب أنباء عقد اجتماع مجموعة الـ١٩ كما تعمد تسريب الوصية لا سيما الفقرة التي أكدت استبعاد تروتسكي وفق ما ورد في متن الوصية، صحيح أن ستالين قد أدخل تعديلات جوهرية في فحوى الوصيحة لتأمين مستقبله، والتخلص من غريمه ضاربًا بالوصية الحقيقية عرض الحائص لا يعبأ بمشاعر زوجة لينين التي كانت على يقين بما جاء في وصية زوجها.

في تلك الأثناء كان ستالين الذي تسلل ثعلبًا داخل صفوف الحزب البلشفي ولجنته المركزية قد أدار ظهره وأشاح بوجهه عن مجموعة أعضاء المكتب السياسي الذين كان غالبيتهم يؤيدون تنصيب تروتسكي بوصفه الثوري العالمي الذي كان لا يفارق لينين قط.

لقد اعتمد ستالين على شعبيته المتزايدة داخل الحزب، وبل في الشارع الروسي نفسه بعد أن نجح في تسويق نفسه بوصفه زعيمًا بناءً يحمل في صدره

هموم أمة، وآمال شعب، وتطلعات جيل ينشد الرفاهية على عكس خصمه العنيد الذي كان شديد الاعتناء بعالمية الثورة، وهو الخيط الذي التقطه ستالين، وراح يندد به متهمًا غريمه بافتقاره الحس السياسي الشعبي وافتقاره لحاجة الأمة الروسية الحالمة والمتطلعة لحياة كريمة بعيدًا عن صراعات مذهبية مع الرأسمالية العالمية، وهو من شأنه ما سوف يؤثر سلبًا على حياة الشعب الروسي الذي سيدفع ثمنًا باهظًا لمغامرات ثوري طائش وفق ما كان يصفه ستالين في خطبه اليومية.

ولأن ستالين كان ذا نزعة ديكتاتورية أصيلة فقد تظاهر كعادة الحكام الطواغيت المستبدين بأنه قد ضاق ذرعًا من الصراع الدائر بينه وبين منافسه الرفيق تروتسكي الذي لا هم له سوى الاستيلاء على مقاليد السلطة بغض النظر عن تداعيات ذلك على مستقبل الاتحاد السوفيتي تلك الإمبراطورية الشاسعة الواسعة التي تركها لينين..

وراح الشاب الحالم بالسلطة المتأجج بنيران الحقد والكراهية لتروتسكي وأنصاره يفند مخاطر سيطرة فريق تروتسكي على زمام السلطة، وعلى النحو الزائف الذي انتهجه أعلن جوزيف وسط جموع غفيرة من أبناء الشعب السوفيتي اعتزامه التخلي عن منصبه كسكرتير عام الحزب ثم طالب في حركة درامية جماهير الحزب مساندته ودعمه في اتخاذ هذا القرار ليعود إلى صفوف الحزب عضوًا، فاعلاً، وناشطًا من أعضائه من أجل نزع فتيل أزمة سلطوية نشبت بينه وبين منافسه تروتسكي الذي لا يأبه -على حد تعبير ستالين- بمصير الأمة ومستقبلها بالطبع كانت الحيلة الستالينية الماكرة العبقرية قد انطلت على

جماهير الحزب وأعضاء لجنته المركزية، وإن كان قد اصطدم مع أعضاء المكتب السياسي الموالين لتروتسكي حيث فطنوا لمؤامرة ستالين ضد تروتسكي.

وعلى خلفية الاستقالة المزعومة الزائفة التي تعهد بأن يقدمها حال الانتهاء من خطبته كانت الجماهير البلشفية قد نهضت من مقاعدها تندد بقراره مطالبة بضرورة إبقائه في منصبه من أجل تكريس سبل الاستقرار ودعائم السلام الاجتماعي داخل البلاد.

ولم تكتف جماهير الحزب بدعوتها، بل خرجت إلى الشارع الروسي تهتف بحياة الزعيم الإصلاحي البناء جوزيف ستالين لنهضة البلاد والارتقاء بكافة شؤونها الاقتصادية والاجتماعية والتثقيفية والصناعية والزراعية والعسكرية وفق ما لوح به ستالين في خطبه الأخيرة، إذن اجتذب ستالين جماهير الحزب الذين حملوه على الأعناق وبدا كأنه يلبي مطلبها ورغبتها على غير هوى منه لكن المسؤولية التي ألقت بها الجماهير على كاهله هي التي أرغمته على بقائه سكرتيرًا عامًا للحزب، وهي الرسالة التي أراد توصيلها إلى منافسه تروتسكي لتحجيمه وتقزيمه في محاولة للتخلص منه حتى يستطيع الانفراد بالسلطة دون أن ينازعه فيها أحد لا سيما شبح تروتسكي الأحق بالخلافة يتراقص أمام عينيه، وأصبح صداعًا يدق رأسه بعنف ، وحان الوقت الملائم لطرده بغير رجعة.

لكن ماذا عن تروتسكي؟

هل استسلم للحبكة الدرامية الرائعة التي أخرجها ستالين بكفاءة وانطلت على الدهماء والسذج والغوغاء؟

الواقع أن تروتسكي لم يكن من ذلك النوع الذي يلوح بمنديله الأبيض أو يلقي

بسلاحه معلنًا استسلامه، بل إنه شخص يتسم بالعناد والصلابة والتحدي.

في تلك الأثناء اندلعت الثورة الصينية عام ١٩٢٥ حيث كانت الملايين من العمال والفلاحين قد خرجت عن بكرة أبيهم ينددون بالقوى الاستعمارية الأجنبية التي تحصد خيراتها، وتسلب كنوزها فحدث من جراء ذلك مجاعات لا تنتهي بين الطبقات العمالية والزراعية على حد سواء.

كانت الثورة الصينية بقيادة تسانج كاي شيك الرأسمالي القح الذي كان يتطلع إلى بناء دولة رأسمالية عملاقة على غرار النموذج البريطاني على وجه الخصوص.

أما الإشكالية في ذلك أن ستالين كان قد أعطى توجيهاته إلى الحزب الشيوعي الصيني بضرورة دعم الزعيم الصيني شيك بغض النظر عن أهداف ثورته المتعارضة كليًا مع برامج الحزب الشيوعي الصيني، بل والروسي أيضًا.

والواقع أن ستالين أدرك بدهاء أن الثورة في طريقها للنجاح، وسواء أيدها الحزب الشيوعي الصيني أو لا، ومن ثم حرص من جانبه على نسج خيوط علاقة وثيقة مع الصين تجنبًا لصدام محتمل معها إذا استنكر أو ندد بالثورة، وهو ما سوف يضاعف من عدد أعدائه، وهو في مرحلة لا تحتمل فتح جبهة معادية خاصة إذا كانت الصين.

وعلى الرغم من تأييد الحزب الشيوعي للزعيم الرأسمالي الصيني (كاي شيك) ومؤازرته في معركته مع الاستعمار فقد غدر كاي بالحزب الشيوعي الصيني وراح يحصد أرواح مئات الآلاف منهم بحجة حماية التجربة الرأسمالية من الشيوعية.

ويبدو أن الزعيم الصيني قد ساورته الظنون وراودته الشكوك في موقف ستالين، وأنه ظن تأييده خدعة كبرى تستهدف التغلغل والسيطرة على الثورة ومحاولة الالتفاف عليها لصالح الشيوعية.

كان الزعيم الصيني على جانب لا بأس به من الصواب حيث لم يكن مستسيغًا قط أن يبادر ستالين زعيم الشيوعية وأحد رسلها ودعاتها لتأييد ثورة مضادة لمنهجه ونظريته وأهداف حزبه ا لشيوعي.

من هنا أبدى الزعيم الصيني كاي تشيك ارتياحًا مشوبًا بالحذر لتحركات الحزب الشيوعي لحين الانتهاء من المواجهات الكبرى مع القوى الأجنبية الاستعمارية.

وما إن فرغ الزعيم الصيني حتى ارتدى قناعًا حديديًا وراح يصدر أوامره الدموية بسفك وسفح دماء ودموع أبناء الحزب الشيوعي لوأد خططهم التآمرية وفق اعتقاده.

كانت عمليات الإبادة الجماعية لطمة عنيفة تلقاها جوزيف ستالين أمام خصومه من أمثال تروتسكي الذي التقط الحادث المروع للتنديد بسياسات ستالين واتهامه بالخيانة والغدر، وبيع الحزب الشيوعي الصيني لصالح الرأسمالية العالمية مقابل تكريس نظامه الحاكم وحمايته فضلاً عن التزام ستالين بالانكفاء على نفسه داخل محيط بلاده دون اللجوء لتصدير الثورة الشيوعية وكان واضحًا أن اتهامات تروتسكي قد وجدت لها آذانًا صاغية، بل وقوبلت بعاصفة من الترحيب والتشجيع والموالاة من أجل المضي قدمًا في فضح سياسة ستالين الذي تخلى عن أبناء مذهبه الشيوعي وراح يدعم خصوم الحزب

وأعدائه في سبيل تدعيم نفوذه وحماية منصبه وتجنبًا لصدام وشيك مع الصين!!!

من ناحيته فطن ستالين أن تروتسكي سدد له ضربة قد تكون قاضية ما لم يبادر بالتحرك العاجل لصدها والرد عليها بأسرع وبأقوى ما يكون.

كان تروتسكي قد استطاع آنذاك حشد قادة الحزب ولجنته المركزية وراح يجمع توقيعات حوالي ثمانين عضوًا بارزًا داخل اللجنة المركزية تندد بستالين وتطلب بعزله وإقصائه فورًا لكن ستالين العنيد ما كان لينتظر ضربة قاتلة تعصف به بعد أن كان على وشك الاستقرار والاستمرار، ومن ثم أصدر أوامره بالقبض على أولئك الذين وقعوا على بيان تروتسكي ثم تلا ذلك قرار حازم صارم يقضي بنفي تروتسكي وأسرته إلى سيبريا.

أدرك ستالين حينئذ أن اللحظة التاريخية الحاسمة حانت ويتعذر عليه تفويت تلك الفرصة وتمريرها دون استغلالها على النحو المأمول.

كان مؤتمر الحزب الموالي لستالين قد صدق على قراره بنفي تروتسكي وأسرته إلى سيبريا عقابًا له على تخوين الرجل الذي وهب حياته فداءً للحزب وللوطن وهو ما يوجب إلحاق الضرر بكل من تسول له نفسه مجرد التلويح بما يمس صورة الرجل ويشوه مسيرته.

على أثر الموافقة التي أبدها أغلبية المؤتمر أسرع رجال حرس المؤتمر بإيعاز من ستالين لإلقاء القبض على تروتسكي داخل أروقة المؤتمر.

لكن تروتسكي أظهر معارضة شديدة أمام رجال البوليس الذين تراخت

قبضتهم احترامًا وإجلالاً للزعيم الذي كان ظل لينين وعقله المدبر، والمفكر، وذراعه اليمنى.

من ناحيته لم يكن ستالين على استعداد للتراجع عن قراره العنيف رغم أن بعض أعضاء المؤتمر قد ناشدوه العفو والصفح عن رفيقه وزميله في سنوات الكفاح والنضال الثوري بيد أن ستالين أظهر امتعاضه واستياءه من تلك المناشدات معللاً تمسكه بموقفه وانحيازه للمصالح البلاد العليا وللحزب الشيوعي بعد أن أشار كاذبًا أن الأمر لو كان يتعلق بالإساءة إليه لصفح عنه، وغفر له، أما وإن الأمر وثيق الصلة بكرامة البلاد والحزب ومصالحهما فلا يملك إزاء ذلك صلاحيات تعفو وتصفح!!!

بالطبع كان ستالين يكذب على أبناء المؤتمر الذين كانوا بدورهم على يقين من أكاذيب وخزعبلات ستالين حيث إن جوهر الخلاف كان يتعلق بتخوينه هو دون غيره.

إذن ظل القرار الستاليني الذي استهدف طرد تروتسكي ساريًا ولم يكن قد فقد صلاحياته كما أشاع البعض، وهو ما دفع ستالين للتأكيد على أن القرار ساري المفعول عبر إرسال قوة بوليسية إلى بيت تروتسكي لحمله قسرًا برفقة أسرته إلى سيبريا الجليدية.

لم تشفع توسلات زوجته وبكائها الحار ونحيب ابنه الصغير لدى رجال البوليس الذين تجمدت مشاعرهم وعواطفهم إلى حد جليد سيبريا خوفًا من بطش ستالين وانتقامه إذا ما ترامى لمسامعه تراجع أو تراخي أي منهم أثناء أداء مهمته.

وأمام البطش العنيف الذي واجهه تروتسكي راح يحزم حقائبه رضوخًا لمطالب السلطة الغاشمة، وقد استقل وأسرته قطارًا إلى سيبريا وسط إجراءات أمن مشددة تبرهن على مدى خطورة وأهمية تروتسكي أحد أبرز وأخطر منافسي الزعيم ستالين على الإطلاق، ناهيك عن بعض الذين ظهروا في الصورة عبر محاولات عابثة لإملاء إرادتهم على الحزب لعله يختار من بينهم من يصلح خليفة للزعيم لينين بيد أن ستالين لم يكن يعير أي منهم أي قدر من الاهتمام حيث كان شغله الشاغل هو إيجاد وسيلة ملائمة لطرد تروتسكي الأخطر والأهم.

ولأن ستالين كان يرغب في الانفراد بصورة مطلقة والاستئثار بالسلطة دون أن يزاحمه فيها أحد فقد ظل يتميز غيظًا طوال بقاء غريمه في سيبريا لا سيما وأن ستالين كان أحد نزلاء هذا المنفى وكم تمكن من الهرب منه مرات عديدة بعد توطيد علاقاته مع حراسه الذين كانوا لا يألون جهدًا في دعمه ومساندته بوصفه ثائرًا ضد القيصر الظالم.

من هذا المنطلق راودت المخاوف ستالين الذي ارتاب في ولاء حراس تروتسكي خصوصًا وأن لتروتسكي (كاريزما) تستقطب وتستميل كل من يلتقي بها، ويحاورها فما بالك بحراسه الذين سيلازمونه كظله.

وكان الحل الذي اهتدى إليه ستالين للتخلص من شبح تروتسكي وإنهاء صداعه المزمن وهو طرده ونفيه خارج البلاد ولتكن تركيا هي ملاذه ومنفاه حتى يطمئن قلب ستالين وتهدأ خواطره وتسكن ثورته العارمة ويسدل الستار على حقبة رجل كان مثيرًا للرعب والهلع.

وهكذا استطاع ستالين بسط نفوذه وفرض هيمنته على مقاليد السلطة في

الاتحاد السوفيتي بعد طرد تروتسكي وجميع أنصاره لا سيما أولئك الذين كان قد حشدهم للتوقيع على بيان إقالة ستالين بعد توجيه اتهامًا علنيًا بالخيانة لدعمه الثورة الصينية الرأسمالية...

استتبت الأحوال واستقرت الأمور ونامت أعين الديكتاتور جوزيف ستالين، وراح يضحك ملء شدقيه بعد أن تلقى ما يفيد بطرد خصومه إلى تركيا، وفي طليعتهم الزعيم تروتسكي ليخلد جوزيف إلى فراشه طامعًا في أن يقتطع قسطًا من الراحة والاستلقاء على فراشه الوثير بعد أربع سنوات مضت على وفاة لينين لم يكن قد تمكن خلالها من حسم الصراع لصالحه بعد.

وكان عام ١٩٢٨ هو عام الحسم الذي شهد تكويش ستالين وانفراده بالسلطة ليبدأ حقبة جديدة لم تشهدها البلاد من قبل في زمن القياصرة الطغاة!!

الفصل السابع

الديكتاتور الأوحد

بعد أن تخلص ستالين من تروتسكي وأنصاره هل اطمأن قلبه، وسرت نفسه أم لا يزال أسير الهواجس ومسكونًا بالظنون، ومكبلاً بالشكوك، أغلب الظن أن طبيعة جوزيف ستالين ونزعته الاستبدادية لابد وأن تدفعه دومًا إلى إساءة الظن فيمن حوله مهما أظهروا بين يديه من حسن النوايا وطيب المقاصد.

من هنا عاش ستالين شأنه شأن أي طاغية مستبد لا يأمن لمن حوله مما أوجب عليه دائمًا التخلص والقضاء على كل من يرتاب في أي من مسلكه حتى ولو كان بريئًا.

والواقع أن القضاء على المحيطين بالديكتاتور هي نزعة أصيلة كامنة ينفرد بها كل ديكتاتور دونما حاجة لنصيحة أو إرشاد أو تحذير، ولعل الطريقة الانقلابية التي تتعارض مع الشرعية التي يستولى بها الطغاة على مقاليد السلطة هي التي تدفعهم للتشكك فيمن يحيطون بهم ، وتخوفًا من الانقضاض على السلطة بنفس

الطريقة التي جاءوا بها، ومن ثم يظل غارقًا في شكوكه، وظنونه حتى يرحل عن الحكم هربًا أو قتلاً أو موتًا.

لكن الحقيقة أن خصوم ستالين كانوا أكثر ولم يكن تروتسكي بمفرده، بل كان هناك من يتربص بكلا الرجلين على أمل استخلاف لينين أمثال زينوفييف وكمينييف وهو ما دفع ستالين لتدبير مؤامرة للإجهاز عليهما، وعلى أنصارهما بغية الانفراد بالسلطة والاستئثار بها .

وكعادته افتعل ستالين أزمة أراد من خلالها الإطاحة بخصومه حيث أصدر أوامره بإحالتهما إلى المحاكمة بتهمة التآمر على نظام الحكم، والعمل على تكدير السلم العام، وامتثلوا جميعًا أمام هيئة تحقيق شكلها ستالين بنفسه، وقد أدلى جميع المتهمين باعترافات على جرائم لم ترتكب قط نزولاً على رغبة ستالين وتحت وطأة تعذيب لا مثيل له حتى في أعتى وأقسى زمن حكم القياصرة.

ولم يكن من بين المتهمين أنصار الزعيمين زينوفييف وكمينييف بل كان هناك أذناب الزعيم تروتسكي الذين اعترفوا بدورهم عن اتصالات جرت بينهم وبين تروتسكي للقيام بانقلاب على نظام الحكم وهي.اعترافات لم يكن لها ما يعززها بقدر ما كانت مدفوعة بإخلاء ساحتهم متى أدلوا بها والتمسوا العفو من ستالين.

لكن ستالين لم يكن من هذا الطراز الذي يفي بما تعهد به فيما يتعلق بنظام حكمه، كما لم يكن من أصحاب القلوب الرحيمة ما دام الأمر يمس سلطانه، وهو ما دفعه لإصدار أوامره بإعدام خصومه جميعًا رميًا بالرصاص رغم ما رواه المؤرخون من بكائيات وتوسلات ومناشدات صدرت على لسان أولئك الضحايا

حتى إنهم جميعًا كانوا يؤكدون- داخل قفص الاتهام وسط دموع بدت كالسيل بللت وجوههم- أنهم يقدرون الرفيق ستالين، ويحبونه، ويحترمون سياسته، ويؤيدونه إلى آخر مدى.

صحيح أنها مشاعر مختلطة بالخوف والرعب والأمل والرجاء لكنها توسلات أبرياء لم تشفع لهم دموعهم ولا حتى نفاقهم المذموم.

ولأن ستالين كان قد تخلص من نائبه الرفيق كيروف بعد أن لاحظ ستالين ازدياد نفوذه وتوسع شعبيته داخل الحزب، وهو ما رآه من ناحيته خطرًا داهمًا يتهدده ويجب مواجهته فاضطر إلى تكليف بوليسه السري القمعي للإجهاز عليه في حادث اكتنفه الغموض.

وراح خصوم ستالين يندون بالحادث، ويشيرون بأصابع الإتهام إليه من خلال منشورات كانت متناثرة في أرجاء البلاد فقد طلب ستالين من هيئة المحكمة أن تنتزع اعترافًا من مجموعة زينوفييف وكامينييف بضلوعهم في تدبير مؤامرة اغتيال كيروف نظير الإفراج عنهم أو نفيهم إلى سيبريا الجليدية..

ولأن الغرقى يتطلعون إلى قشة يتعلقون بها فقد أدلوا باعترافهم الكاذب حول دورهم في مقتل كيروف فكانت القشة التي قصمت ظهورهم لتزيد من الطين بلة، ويتمسك ستالين بموقفه الوحشي بعد أن أثبت لرجال الصحافة في الداخل والخارج براءة ساحته من دم كيروف.

لكن حقيقة الأمر أن دم الرفيق كيروف ظل طوال سنوات الحقبة الستالينية يطاردها ويؤرقها ويوخزها.

وفي عام ١٩٣٧ أي بعد مرور عام على إعدام مجموعة زينوفييف وكامينييف راح يلقي القبض على مجموعة أخرى يتصدرها زعماء بارزون داخل الحزب البلشفي، كان بعضهم قد أظهر قدرًا من الاحتجاج السلمي لسياسة ستالين، وكان من بين هؤلاء الضحايا الجدد سريريا كوف وراديك وبياتكوف والمئات من أنصارهم، وقد واجهوا أيضًا تهمة الاتصال بالزعيم المنفي تروتسكي تلك التهمة التقليدية التي اعتاد عليها ستالين عند مواجهته خصومه بوصفها الذريعة القانونية والشرعية التي اتخذها لوأد خصومه وأعدائه.

أضف إلى ذلك تلك المحاكمات القمعية والوحشية قيام جوزيف ستالين بمنح البوليس السري صلاحيات واسعة في قتل خصومه دون استئذانه أو الرجوع إليه ما دام الأمر يتعلق بسلامة نظام الحكم، واستقرار البلاد، وهو القرار الذي استغلته الأجهزة البوليسية السرية استغلالاً فاضحًا فاشاع مناخًا من الرعب والهلع والفزع بلغ أن المرء لم يكن يحدث نفسه أو أسرته خوفًا من اصطياده ووقوعه في شباك البوليس السري الذي أضفى على نفسه مهابة وجسارة ظن منها أبناء الشعب أنه يرصد دبيب النمل فما بالك بحديث الوسادة بين الزوج وزوجته، أو الأخ مع شقيقه!!

وعلى ضوء هذه التطورات لاذ الجميع بالصمت وبات ذكر اسم الزعيم تروتسكي حتى ولو كان ذمًا أو قدحًا من قبيل الحماقة والجنون ينبغي التخلص منها، وليذهب تروتسكي إلى الجحيم لننجو بأنفسنا.

وقد علق الأديب الفرنسي اللامع «اندريه جيد» عن دور البوليس السري في روسيا قائلاً:

«كان المسدس في يد البوليس السري هو الحكم والقول الفصل والخاتمة الجتهمية، حيث كان يحسم الأمر لصالح زعيمه جوزيف ستالين سواء كان الحق معه أو مع خصومه».

ويستطرد جيد :

«لقد اعتاد ستالين الاستعانة بالبوليس السري لوأد خصومه حتى ساد مفهوم لدى الجميع أن الذين أتوا بالقوة في أيديهم قد أتوا معها الحكمة، ومن ثم لم يسع المعارضين لهم سوى أن اختارو طوعًا مسلك السلامة، وذلك بكتم مشاعرهم وإخراس أفوالهم».

ومن فرط القسوة البوليسية التي مارسها جهاز (الأوجيبو) ثارت حوله الأساطير التي تشير إلى قدرته الفذة في كشف الشكبات المناهضة دون عناء فضلاً عن استخدامه للتقنيات العالية في تنفيذ مهامه وانتزاع الاعترافات : كالتنويم المغناطيسي الذي يعتمد على سلب إرادة المتهمين.

لقد كان ستالين يسعى قدر الإمكان إلى تكريس عماد استبداده وطغيانه، ومن ثم رغب في أن يتخلص من جميع خصومه لكي تصبح الإرادة السياسية بيده دون غيره من الذين كانوا يتطلعون إلى مشاركته صنع القرار.

أما اللافت للنظر هو أن سياسته الدموية والقمعية لم تكن محل استهجان أو استنكار من الشعب الروسي، بل على العكس تمامًا كان هناك من بين مثقفيه وأدبائه، ورموزه من يشفع له سلوكه الهمجي ويلتمس له الأعذار لسياسة البطش بحجة حماية الثورة من أعدائها، وحفاظًا على مكاسبها، وانتصاراتها، ولولا ذلك ما كانت تسمى بالثورة على الأوضاع والأعداء.

كان الشيوعيون سواء في روسيا أو في غيرها يرون قمعه واستبداده بانتحال أعذار واهية بحجة أن الثورات تأكل أبناءها، وستالين لا ينبغي أن ينتظر ساعة ذبحه والتهامه.. ولن لكل ثورة ديكتاتور منوط به إرساء النظريات على أرض الواقع، وكثيرًا ما يستشهد أولئك الذين أبادوا وأتاحوا لستالين مسلكه أن الثورة الإنجيليزة بقيادة كروميل انقلبت على نفسها لولا طغيانه واستبداده، وأن الفرنسية أكلت أولادها لولا وحشية دانتون وروبيسر ودانتون وصدام حسين وجمال عبد الناصر وموسوليني وأتاتورك قد أطلقوا النيران على خصومهم لتأمين موكب الثورة حتى يستطيع الوصول إلى مقصده الأخير!!

وستالين نفسه أكد للأديب البريطاني هربرت جورج ويلز خلال مقابلة تمت بينهما داخل مبنى الكرملين عام ١٩٣٥:

«إن النظم الحاكمة القديمة كان تدافع عن نفسها عبر تسخير كافة الأدوات والوسائل الممكنة سواء كان ذلك بواسطة إشعال الحروب المسلحة أو فتح المعتقلات والسجون أو تدبير المؤامرات وتصفية الخصوم..».

ويتساءل جوزيف ستالين محدثه في دهشة قائلاً:

« كيف إذن يا ويلز تطالب النظم الحديثة أن تواجه كل هذه الأسلحة؟ هل يقابلوه بالكلمات الجميلة فقط أو أن يواجهوها بنفس هذا السلاح الفتاك؟

والواقع أن ستالين كان يميل بطبعه إلى الأخذ بالأساليب الغاشمة التي لا تتصادم مع النظرية التي أرساها كارل ماركس وهو ما يؤكده ستالين ذاته حين قال:

«إن حل مشاكل السوفييت في ظل الشيوعية ليس بالأمر اليسير كما تظنون».

ولأن ستالين لم يكن ير سوء ذاته تلك التي تضخمت أمام عينيه، وتعملقت في مرآته دون غيره فقد أصدر أوامره إلى البوليس السري في أعوام ١٩٣٥ و١٩٣٧ و١٩٣٨ بانتهاج سياسة القمع دون هوادة أو رحمة ضد الذين يندرون بفلسفة لينين أولئك الذين عابوا عليه تكريسه لمفهوم ديكتاتورية الدولة الشاملة وانتهاكه الصارخ لملايين الفلاحين الذين انتزع حقوقهم عنوة باسم الثورة وحماية الطبقة العاملة..

ثم أصدر أوامره بملاحقة من تشير المعلومات لولائهم وانتمائهم لتروتسكي وزينوفييف وكامينييف ثم ضرب الشيوعيين الذين لا يبادرون من تلقاء أنفسهم للدفاع عن ستالين، وتجميل صورته رغم أن أولئك الشيوعيين قد وصفهم مؤرخي تلك الحقبة السوداء بالشيوعيين الأوفياء لمبادئ الحزب ولفلسفة لينين ولنظرية كارل ماركس.

وبلغ الأمر أن أصدر أوامر سرية لقادة البوليس السري لتعقب الزعيم المنفي تروتسكي واغتياله وهو ما جرى بالفعل عام ١٩٤٠ على يد جهازه الدموي الرهيب.

ومن جانبه علق الزعيم نيكتا خروشوف على سياسة سلفه جوزيف ستالين بعد أن تأكد من جثمانه المسجى قد وارى الثرى، وأن عودته حيًا للدنيا باتت بالطبع دربًا من دروب المستحيل والجنون معًا، ومن ثم راح خروشوف يقول منددًا بسياسة سلفه قائلاً لأعضاء مجلس السوفيت الأعلى:

(لقد بدأ توحش ستالين على الحزب واللجنة المركزية واضحًا وضوح الشمس، وذلك في أعقاب انتهاء اجتماعات المؤتمر السابع عشر المنعقد في أكتوبر ١٩٣٤ .

وأردف خروشوف موضحًا الحقبة الستالينية :

(لقد استطاعت اللجنة المركزية الحصول على معلومات كثيرة في هذا الصدد تكشف عن توحش ستالين إزاء مجموعة من أعضاء الحزب القدامى المناضلين).

من هنا تأسست لجنة كانت خاضعة لرقابة المجلس الأعلى للجنة المركزية تقتصر مهامها التي أنيطت بها إجراء التحقيق في الوقوف على معرفة الدوافع التي كانت وراء تطبيق سياسات قمعية جماعية ضد غالبية أعضاء اللجنة المركزية السابقين، بل وضد أعضاء كان الحزب الشيوعي قد انتخبهم أثناء انعقاد جلسات المؤتمر السابع عشر)[1].

ويضيف خروشوف :

(لقد وقفت تلك اللجنة على قدر هائل من البيانات والمعلومات التي تضمنتها الأوراق التي كانت في حوزة إدارة البوليس السري كما أنها أمسكت بوثائق كانت تنطوي على حقائق مذهلة تتعلق بكيفية تلفيق القضايا الزائفة للشيوعين عن الأوفياء.. وكانت سياسات ظالمة حصدت أرواح الأبرياء. ويؤكد خروشوف في خطابه التاريخي المثير والذي آثار عاصفة من الدهشة آنذاك:

(لقد أماطت تلك الوثائق والبيانات المعلوماتية اللثام عن حقيقة جلية هي أن غالبية أعضاء الحزب لا سيما العناصر التي كانت لا تتدخر وسعًا في السعي

---

(١) نقلاً عن كتاب ستالين للأستاذ فرج جبران.

للترويج للنظرية الشيوعية في القطاع الاقتصادي واجهوا اتهامات ملفقة بوصفهم خونة وأعداء للشعب السوفيتي وذلك خلال عام ١٩٢٧، ١٩٣٨ رغم كونهم بشهادة المحادين في قمة إخلاصهم ووفائهم للشويعية- واستطيع أن أؤكد لك أن هؤلاء الضحايا لم يكونوا قط أعداء أو جواسيس أو خونة.. بيد إنهم حين وجدوا أنفسهم في براثن الاتهام لارتكابهم جرائم مخزية ومخجلة هي في الأساس زائفة بالطبع.. وحين خارت قواهم ونفد صبرهم بتأثير صنوف التعذيب الوحشي الذي لاقوه داخل السجون آثروا جميعًا السلامة باللجوء إلى اعترافات شفهية ومكتوبة تؤكد ضلوعهم في ارتكاب جرائم لا يعرفون عنها شيئًا ما دام ذلك سيبعث على الراحة لدى السيد جوزيف ستالين الرفيق والأخ الأكبر للنظرية الماركسية .

ويستطرد خروشوف قائلاً:

(إن هذه المعلومات قد وقعت من أيادي أعضاء اللجنة التي تبحث في هذه الكوارث المؤلمة وقد رفعت اللجنة إلى المجلس الأعلى للجنة المركزية مذكرات ووثائق مستفيضة تفضح الإبادة الجماعية التي تعرض لها المندوبون للمؤتمر السابع عشر وأعضاء اللجنة المركزية الذين تم انتخابهم خلال جلسات المؤتمر.

ويضيف خروشوف:

(إن المجلس قام بدراسة تلك المذكرات والوثائق ويتضح من خلال هذه الوثائق أن من بين المائة وتسعة وثلاثين عضوًا الذين انتخبوا في المؤتمر السابع ثمانية

---

(١) السابق.

وتسعين اعتقلوا وأعدموا رميًا بالرصاص خلال عام ١٩٣٧، ١٩٣٨ على وجه الخصوص)[1].

انتهت كلمة خروشوف التي استدعاها الأستاذ فرج جبران ليدلل على استياء الجوقة الشيوعية التي كانت ملاصقة لستالين، و لم تكن تتجاسر أو تجرؤ على مجرد الغمز أو اللمز أو التلميح بما ينتهجه من سياسات غاشمة لا تتفق مع مبادئ حقوق الإنسان.

كان ستالين ذلك الديكتاتور المستبد الذي لاحق خصومه وطاردهم داخل روسيا وخارجها.

الشاهد أن ستالين استطاع من خلال قمعه وقهره وتجبره فرض إرادته ونفوذه حتى صار هو الرجل الألد و الأوحد والمعبود الذي قهر خصومه وكسر أعناق أعدائه.

لذلك كان ستالين معبود الشعب السوفيتي رعبًا وحبًا بفعل همجية البوليس السري وتدشين آلة إعلامية جبارة كانت ترصد مزاياه وتداري سوءاته ولا هم لها سوى إبراز أجمل صوره وأعظم إنجازاته وتبرير مذابحه ومعتقلاته حتى انطلت الحيلة على أبناء الشعب السوفيتي كما كان الحال في إيطاليا وألمانيا.

كانت الميديا في إيطاليا تبرز مناقب ومزايا وسمات الدوتشي بنيوتو موسوليني دون أن تتعرض قط لسقطاته، ومصائبه وساسياته الغاشمة القمعية حتى أضحى الإله لدى الإيطاليين والرجل المقدس الذي لا يخطئ قط، بل والرجل المستحيل والأسطورة.

وعلى نفس المنوال الإعلامي الزائف الكاذب كان أودلف هتلر هو الآخر قد تربع على عرش الأسطورة الألمانية بفعل ذكاء وزيره الدعائي العبقري جويلز الذي كان يبحث بنفسه ما ينبغي أن يقال عن الفوهرر وما لا ينبغي عرضه بحال من الأحوال.

كما كان جويلز ينتقي بعناية فائقة الصور التي يجب عرضها على الصحف والتي ينبغي أن تتصدر جدران الشوراع الألمانية مصحوبة بعبارات حماسية للفوهرر لدغدغة أعصاب وإلهاب حماس ومشاعر الألمان الذين انساقوا كالعميان وراء هتلر لا يفكرن ولا يتأملون إلى أين ستؤدي بهم هذه السياسات الطائشة؟

نفس الأسلوب المنهجي تبعه جمال عبد الناصر وصدام حسين حيث كانت صورهما وعباراتهما تتزين بها جدران شوارع مصر والعراق حتى أوحى الناس آنذاك أن الحياة بدون الرجلين لا تستقيم، ولا تجدي وأن الموت من بعدهما هو السبيل للراحة والسعادة.

وكان محمد حسنين هيكل في مصر يجيد صياغة وانتقاء الصور والعبارات على جدران وصحف وتلفزيون مصر حتى تربع الزعيم على عرش قلوب المصريين فكانت جنازته المهيبة تجسيداً لغياب الوعي المصري وقس على ذلك ما كان عليه الرئيس العراقي صدام حسين ومدى فداحة النفاق الإعلامي والشعبي لسياساته رغم انعكاساته الخطيرة على العراق بصفة خاصة وعلى الأمة الغربية بوجه عام.

كان أحد المراسلين الأجانب الدين زاروا العراق خلال أزمة الخليج الثانية التي شهدت اجتياح العراق لدولة الكويت قد استبد به الذهول لحجم وكثافة الصور

والتماثيل التي امتلأت بها شوارع بغداد والتي فاقت حسب ما أورده المراسلين عدد الشعب العراقي الذي كان يبلغ حينئذ ٧ مليون نسمة!!

ولم يكن ستالين بمنأى عن ذلك، بل قل إنه أحد المؤسسين لهذه الأساليب والأدوات التي من شأنها التأثير الطاغي على الشعوب المقهورة حيث كان الاتحاد السوفيتي هو الآخر ذاخرًا عامرًا مكتظًا مزدحمًا، مكدسًا، مملوءًا، بصور وتماثيل ولوحات وعبارات ومقولات ومصطلحات وصيغات وصرخات جوزيف ستالين حتى إن أحد الزوار الأجانب كان قد تردد خلال زيارة رسمية على عشرة مصانع يجاور بعضها بعضًا كان تسعة منها يحمل اسم ستالين بينما العاشر تتزين جدرانه بصورة ضخمة مكبرة له!!

أما عن التماثيل التي نحتها وصنعها الفنانون الروس فقد فاقت حدود المقبول والمألوف والمستساغ لكن من الذي كان يقدر على النقد أو الاحتجاج!!

كانت صوره داخل دور الملاهي والمواخير والمتنزهات والكازينوهات والمدارس والمستشفيات والمصانع والمزارع والطرقات وجميع المباني والمنشآت.

أما عن الكتب التي كانت تتصدر رفوف المكتبات وأكشاك الصحف والمجلات فقد كانت كلها تدور حول مآثر ستالين ومناقب لينين وتفسيرات كارل ماركس ومصائب الرأسمالية والليبرالية ومغبتها على الشعوب الغربية التي تعيش تحت مظلة شاسعة من الأوهام والأكاذيب حول جنة الرأسمالية ونعم ورغد الليبرالية، وتشويه الشيوعية وتلطيخ سمعتها.

أما الصحف والمجلات اليومية وفي مقدمتهم جريدة «البرافدا» أوسع

الصحف السوفيتية باسم الحزب الشيوعي، ومجلس السوفييت توزيعًا وانتشارًا بوصفها الناطق الرسمي باسم ستالين والمتحدث باسم الحزب الشيوعي، ومجلس السوفييت الأعلى واللجنة المركزية والمكتب السياسي وقد كانت عبارة عن نشرة مكررة لا تخلو بحال من الأحوال من عظمة الزعيم ستالين، وكيف أنه استطاع النهوض بالبلاد رغم الأنواء والتحديات والصعوبات والصراعات الداخلية التي واجهته والأزمات الخارجية التي باغتته.

كانت هذه المظاهرة الإعلامية والزخام الفوتوغرافي إنما هو محاولة جادة وعبقرية لتزييف إرادة المواطن الروسي وسلبها وقيادتها بسلاسة وفق رغبات وتطلعات ستالين ورفاقه.

ولعل الصدمة التي اجتاحت مشاعر الشعب الروسي في أعقاب وفاته كت تبرهن على مدى تفوق الجهاز الإعلامي في التأثير البالغ والجنوني على المواطن الذي كان يعتقد أن ستالين أقوى من الموت.

ثم إن روسيا كلها لا يمكنها العيش بدونه فهو الرجل الذي إذا تعهد أوفى، وإذا أمر أُطيع، وإذا حارب ، انتصر، وإذا أراد شيئًا تحقق بفضل عبقريته وسياسته وقدراته الفذة البارعة.

وفي معرض تعليقه على ما لمسه من نفاق رخيص وامتداح مقزز قال الكاتب والأديب الشهير أندريه جيد عارضًا رؤيته لما وقعت عليه عيناه

(لقد ضقت ذرعًا واحتواني الضيق من هذا التفخيم الذي رأيته ولمسته للمكانة البارزة التي احتلها ستالين وقصائد ومقالات الإطراء والمديح التي يحظى بها).

كانت الوسائل الإعلامية والأدوات الدعائية التي كان هو على وجه التحديد متحملاً مسؤوليتها تصوره للمجتمع السوفييتي كزعيم معصوم من الخطأ، بل عرضته بوصفه الزعيم العليم الرحيم الكريم الخلاق المبتكر الملهم، القائد الذي وهب روسيا الحياة وصنع لها كل شيء.

لقد كان ستالين وفق ما صورته الدعاية بالرجل الذي جلب الخير لبلاده ومن بين أنامله كانت تستفيض الهبات والبركات والنعم والخيرات، بيد أن المصائب والكوارث والمحن والهزائم والنكسات والنكبات إنما كانت دائمًا من صنع المخربين والتروتسكيين أعداء الأمة وخصومها.

يضيف أندريه جيد:

(لقد عبرت عن دهشتي وسخطي على مثل هذه العبادة والتقديس لستالين عبر مقال كتبته في موسكو، وقمت بنشره في نيويورك عام ١٩٣٠ وحملته تبعة ذلك وأطلقت على هذه الظاهرة أبشع الأوصاف حتى إني قلت عنها بأنها «مناقضة للبلشفية» وإن كانت في الواقع «بلشفية صميمة» لأنها النهاية التي لا مفر منها للديكتاتورية فقد رأينا هتلر وموسوليني يتوليان حركة مماثلة في باب المديح الذاتي . وإملاء التسبح والحمد والتمجيد)..

• أعوان ستالين الديكتاتور

ولأن ستالين أراد الانفراد بالسلطة فقد بذل قصارى جهده في التخلص من الذين حامت حولهم شبهات الولاء لتروتسكي حتى ولو كانت محل شك وراح يغدق على بعض ممن اشتهروا بطاعته وامتثالهم وإيمانهم بسياسته بأرفع المناصب.

كان ستالين يهدف من ذلك إلى تدعيم و حماية نظام حكمه من مؤامرات تحاك ضده، ومن ثم أسند إلى ابنه فاسيلي منصب قائد القوات الجوية السوفيتية رغم أن عمره لم يكن قد بلغ الثامنة والعشرين من عمره.

وأسند إلى الجنرال بوسكريسشيف منصب رئيس سكرتارية مكتبه الخاص، واشتهر الجنرال بنزعته الدموية حتى نال لقب سفاح باقتدار لكفاءته في تنفيذ أوامر ستالين الصادرة بشأن القيام بعمليات إبادة جماعية لخصومه ومناهضي نظام حكمه الغاشم.

ثم تولى الجنرال سبيرودونوف قائد حامية الكرملين في العاصمة السوفيتية موسكو والذي كان يحمل على كاهله مسؤولية تأمين مبنى الكرملين.

بينما عهد إلى الجنرال سينيلوف قائد منطقة حامية موسكو العاصمة الأم للاتحاد السوفييتي.

كما أوكل إلى الجنرال أرتميف قيادة منطقة موسكو العسكرية .

وأسند إلى ترتياكوف إدارة وزارة الصحة وتنصيبه طبيبًا خاصًا له.

كما ألقى على كاهل باستيلاف ميخايلوفيتش مولوتوف منصب وزير خارجية

الاتحاد السوفيتي، وقد كان أحد رواد الحزب البلشفي، ومؤسس جريدة البراق الشهيرة، ولأن مولوتوف كان من أخلص خلصاء ستالين والذين يطيعون أوامره ويسبحون بحمده فقد تدرج في مناصبه حتى أضحى النائب الأول لرئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفيتي فضلاً عن كونه ألمع وأشهر أعضاء المكتب السياسي.

أما «بيريا» فحدث عنه ولا حرج أشهر من أنتجته الحقبة الستالينية ذلك الجنرال السفاح القاتل الذي ذاع صيته خارج حدود بلاده بلقب «بيريا الرهيب» من فرط وحشيته ودمويته وعنفه وقسوته، كان الرجل واسمه بالكامل «لافرنتي بالفلوفيتش بريا».

ومجرد ذكر اسم بيريا لدى سامعيه كان كفيلاً بقذف الرعب في القلوب وتفكيك الأوصال وانهيار الأعصاب بوصفه أبشع وزير داخلية شهده الاتحاد السوفيتي حتى في زمن القياصرة آل رومانوف لم يكن بمقدورهم الاستعانة بوزير داخلية يملك مهابة هذا الوحش الآدمي.

ولفرط إعجاب ستالين بسياسة الحديد والنار والدم التي انتهجها بيريا أوكل إليه عضوية مجلس السوفيت الأعلى وترقيته إلى رتبة ماريشال الاتحاد السوفيتي وما لبث أن حصل على عضوية المكتب السياسي من قبل، وتولى مسؤولية الأمن العام في جميع المناطق الخاضعة للاتحاد السوفيتي.

ولأن بريا كان يؤدي المهام الموكول إليه على النحو الذي يتطلع إليه ستالين فقد ألقى عليه بمسؤولية رعاية وحماية مشروع القنبلة الذرية لقدرته الفذة على تنفيذ كافة مراحلها بسياج حديدي صارم يحول بين المشروع والجواسيس الغربيين الذين كانوا يجاهدون للوقوف على مدى تقدمه وقدرته وأيضًا في زرع

جواسيس من رجال (الكي جي بي) داخل المؤسسات العسكرية والنوية الغربية للحصول على أهم المعلومات المتعلقة بأسرار تصنيع القنبلة الذرية.

أضف إلى ذلك أن بريا الذي نال ثقة الزعيم وأضحى هو الرجل الأخطر والأبشع في تاريخ الاتحاد السوفيتي فقد كان الشعب السوفيتي يرفع أكف الضراعة للتخلص من (بيريا) الرهيب الذي أشاع الرعب في صدور الأمة السوفيتية ولم ينجو من بطشه أحد حتى إن بعض وزراء حكومات ستالين كانوا يخشون بطشه وعنفوان سياسته، ولما ضاق بعضهم ذرعًا وأبلغوا ستالين بما يقوم به بيريا كان ستالين ينظر إليهم شذرًا، ثم سرعان ما يلقي عليهم باللائمة والتقريع والتأنيب بصوت جهوري موكدًا لهم عبقرية بيريا في تأديب الخصوم، وتكميم الأفواه المعارضين، وسحق العصاة والمتمردين من أجل توفير أجواء آمنة ومطمئنة وهادئة للأمة السوفيتية.

والواقع أنه كلما ورد اسم ستالين قفز إلى الأذهان اسم «بيريا» حيث وصفه المؤرخون أنه كان مسدس ستالين وعصاه الغليظ ويده التي يبطش بها ورأسه المدبر في إبادة الخصوم، ولم يذكر التاريخ أحد من رجالات ستالين مثلما ذكر بيريا السفاح الرهيب.

أما «لازار موسييفيتش كاجونوفيتش» الذي كان يعمل مجرد إسكافي قبل اندلاع الثورة فقد صار في ظل الحقبة الستالينية من أشهر الرجال المقربين لستالين، وقد عرف آنذاك (بالقوميسير الحديدي) لعبقريته في تنظيم الحزب بصورة غير مسبوقة أثارت إعجاب المراقبين في أرجاء الدنيا..

أضف إلى ذلك أن ستالين كان يعهد إليه بمهام شديدة السرية لرأب الصدع

بين بلاده وجيرانها أو حلفائها فضلاً عن قدرته الفائقة في تمرير قرارات ستالين التي تتصادم أحيانًا مع الشعب أو الحزب من خلال دهائه ومكره الشديدين ولا يخفى على أي أحد أن هذا الرجل كان يهوديًا وقد قيل إنه كان يقف وراء دعم الاتحاد السوفيتي لإسرائيل وتأييد إعلان دولتها بعد عشرين دقيقة من إعلان الأمم المتحدة وعشر دقائق من إعلان الرئيس الأمريكي هاري ترومان.

كما قيل إن هذا الداهية كثيرًا ما بذل قصارى جهده لبناء جسور من الود والدعم والتعاون والتفاهم بين الاتحاد السوفيتي وإسرائيل.

وروى البعض أيضًا أنه لم يكن يمل من إرشاد ستالين ونصحه لإبداء تعاطفه وتأييده للصهاينة في فلسطين وتنديده وتهديده للحكومات العربية المعادية للدولة الصهيونية الوليدة في قلب أمتها!!

وغني البيان أن الرجل هو الذي أوحى إلى ستالين لكي يعلن التزام الاتحاد السوفيتي وتعهده بإمداد بلاده «إسرائيل» بالسلاح متى تطلب ذلك.

وكان (نيكولاي ميخايلوفيتش شفرنيك) يشغل منصب رئيس مجلس السوفييت الأعلى، وقد حظي بثقة ستالين وإعجابه، ومن ثم أصدر ستالين قرارًا لمجلس السوفييت الأعلى بتنصيبه رئيسًا له بعد أن تأكد عبر التقارير الأمنية والاستخباراتية مدى ولائه الشديد وإخلاصه لنظامه الحاكم فضلاً عما اشتهر به من رصانة وهدوء أعصاب وحكمة بالغة في دراسة القضايا المنوط بمجلس السوفييت الأعلى اتخاذ ما يلزم حيالها حين كان عضوًا بارزًا بداخله.

أما وزير القوات المسلحة السوفيتية زمن ستالين فقد شغل هذا المنصب

الجنرال «نيكولا إلكسندروفيتش بولجانين» وقد تميز ببراعته في وضع الخطط العسكرية أثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية ومهارته في كيفية دحر القوات الألمانية ثم قبل هذا وذاك ما كان بيديه بصفة دائمة عن ولائه وإخلاصه وامتنانه وانبهاره بسياسة ستالين وتعهده حين تولى منصب وزير الدفاع بأداء مهامه على الوجه الأكمل وفرض حماية خاصة للزعيم كسياج يحول بينه وبين تسول له نفسه إلحاق الأذى والمساس بالزعيم الرمز والأب والقائد.

وهكذا استطاع ستالين حماية نظام حكمه وانفراده بالسلطة.

الفصل الثامن

مذابح ستالين

لم يكن جوزيف ستالين يعرف معنى الرحمة أو الشفقة أو العفو أو أي من تلك الكلمات الحنونة الرقيقة، والعذبة، و من ثم كان ستالين يؤمن إيمانًا جازمًا باستخدام سلاح القتل بوصفه الحل الأمثل والأسهل لتصفية خصومه وأعدائه.

والواضح أن الحقبة الستالينية كانت امتدادًا غاشمًا لسياسة لينين وتروتسكي، ولم يكن أي منهما قد نال شهرة ستالين في أعمال الذبح والسلخ، والنفي والتعذيب، والتنكيل، رغم أن لينين كان هو الذي يقف وراء تأصيل وتكريس سياسة القتل والإبادة الجماعية للمعارضين.

والواقع أن ستالين مارس كافة أنواع القتل والإبادة منذ أن كان صبيًا حين رفع سكينًا على رقبة أحد رجال البريد الذي يكان يحمل على دراجته مبلغًا من المال من ودائع المدخرين واستولى عليه للإنفاق على أسرته، وقد سرت أمه لهذا الفعل وقالت لجيرانه : إن لسوسه مستقبل ذو شأن عظيم.

وكان غريبًا أن تتحقق نبوءة أم هذا السفاح والتي طاردتها شائعات لم تكن تخلو من القول الفاحش الذي ينال من كرامتها وشرفها وهو ما لا نريد الخوض فيه كما سبق لغيرنا الخوض فيه بحجة تشريح وتحليل وتفسير وقراءة شخصية ستالين حيث إن خصومه ومعارضيه قد أشاعوا حول سيرة والدته ما يخجل القلم من ذكره.

ونحن بمنأى عن الوقوع في هذا المستنقع لا سيما وأن أصحاب هذه الشهادات مجروحون لخصومة أولئك الشهود وعدم التزامهم بالحيدة والنزاهة.

لكن على أية حال فقد كان ستالين جاف الطباع بارد المشاعر ذو قلب قاس متحجر متصلب متعجرف.

والحقيقة أن جميع طبقات الشعب السوفيتي لم تنجو قط من بطش ستالين وسياسته القمعية وكانت جميع الفئات المهنية قد عاشت تنزف دماء وتذرف دمعًا جراء تلك السياسة الغاشمة.

لم تكن القوات المسلحة نفسها بمنأى عن هذه الحماقات، بل كانت على رأس أولويات ستالين في تطهير بعض وحدات الجيش السوفيتي وعزل ونفي وسجن وقتل وسحل بعض قادته الذين ساورت رجال الكي جي بي بعض الظنون في مدى تبعيتهم لستالين.

أباد أكثر من مائة ألف جندي وضابط من ذوي الرتب العليا وذلك رميًا برصاص قوات البوليس السري الذي أسسه ستالين ومنحه صلاحيات واسعة النطاق أدت إلى القيام بعمليات إبادة للعديد من القرى وتطهير بعض المدن التي

تظهر فيها بوادر عصيان أو ملامح استياء فسرعان ما تتحول إلى كومة من التراب أو قطعة من الفحم الأسود.

ولم ينجو قطاع الأطباء داخل الكرملين من جحيم ستالين لمجرد أن أحدهم أوشى للأجهزة الأمنية أن هناك من بين هؤلاء الأطباء من قام بدس السم خلال جرعات دوائية لبعض رموز المكتب السياسي أمثال إلكسندر شيرياكوف ولاندريازاد نوف.

وكانت جريدة برافدا قد نشرت في أوائل ١٩٥٣ وقائع هذه الحادثة الخطيرة وتداعياتها على مستقبل النظام الأمني الذي يقوده وزير الداخلية السفاح «بيريا» ومدى تقاعس أجهزته في كشف حقيقة تنظيم الأطباء الذين شكلوا أخطر المنظمات السرية لوأد نظام ستالين عبر حقن القيادين بأدوية سامة قاتلة.

وقد راجت أقاويل وأراجيف هزت أرجاء الاتحاد السوفيتي، بل وأثارت دهشة العالم من هول الروايات التي صيغت بأساليب درامية من أجل إلقاء التبعية على الأجهزة الاستخباراتية لدي الولايات المتحدة الأمركية وبريطانيا وفرنسا التي كان شغلها الشاغل هو كيفية القضاء على النظام الشيوعي لستالين الحاكم.

وأما المثير للدهشة في هذه الزوبعة التي أثارتها السلطات هي أن هذه التهم التي وجهت للأطباء الذين لاقى بعضهم حتفه رميًا بالرصاص كانت ملفقة ولا أساس لها من الصحة وأن الأمر لم يكن أكثر من فرية ابتكرها خصوم «بيريا» للإساءة إليه والحط من شأنه لدى الرئيس الطاغية جوزيف ستالين.

وأما الأغرب في ذلك أن ستالين كان يباشر التحقيقات بنفسه، ويبدو أن ما

أذيع أن خصوم بيريا هم الذين دبروا هذه التهم الزائفة أمر غير دقيق حيث تشير الدلائل على ضلوع ستالين نفسه في خلق هذا الحادث.

وأظن أن ستالين بالفعل هو الذي فجر هذه القضية الملفقة حيث بدا في أواخر أيامه يشعر أن صلاحيات بيريا فاقت الخطوط الحمراء، وأنه أصبح الرجل الأخطر في أثناء حياة ستالين وهو الأمر الذي لم يعتاد عليه ستالين.

من هنا أظن بالفعل أنه قد دبر الحادث ببراعة لإحراج بيريا والتخلص من لولا أن أحوال ستالين الصحية تدهورت بصورة مفاجئة لشهدت البلاد تحولات كبرى في محيط السياسة السوفيتية.

ولعل العبارة التي قالها عنه لينين تبرهن على مدى وحشية ستالين حيث وصفه قائلاً:

«إن الرفيق ستالين يحكم بقبضته على سلطة واسعة وضخمة ولست على يقين إن كان بوسعه دائمًا أن يعرف كيف يستعمل هذه السلطة.

وروى مؤرخو تلك الحقبة أن زوجة ستالين الثانية قد ضاقت ذرعًا بسياسته الدموية حيث كثيرًا ما سمعته وهي ملقاة على فراش الزوجية لا يكف عن إصدار أوامر يومية تتيح اغتيال وتصفية العشرات، بل وأحيانًا المئات إذا دعت الضرورة وقد كان كثيرًا ما أمر بحصد أرواح الآلاف رميًا بالرصاص في رائعة النهار.

ويحكى أن زوجته لم تتحمل العيش مع سفاح لا يتورع عن سفك الدماء وقد أبدت امتعاضها لزوجها وطالبته بالكف عن تلك الممارسات الوحشية الأمر الذي أثار حنقه وباتت هدفًا ينبغي الإجهاز عليه حيث جاوزت ما هو مرسوم لها، ومن

ثم بات بقاؤها على قيد الحياة لا يروق له فاختفت في ظروف غامضة لم يتسن لأحد كشف طلاسمها طوال سنوات حكم ستالين.

لم يكن الرجل على استعداد للتخلي عن سلاحه الوحيد الذي استخدمه في تصفية أعدائه من أجل تأمين مستقبله طوال مشواره الطويل للوصول إلى السلطة.

ثم كان أن استمر في تلك السياسة طوال سنوات رئاسته متذرعًا بتأمين بلاده من مخاطر ومؤامرات الأعداء الرأسماليين في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا الغربية.

ولعل قيامه بإطلاق الرصاص بنفسه على بعض خصومه داخل غرف نومهم في بهيم الليل ونفيه لعشرات الآلاف من أعضاء الحزب إلى سيبريا عقابًا لهم على معارضته حين كان يشغل منصب السكرتير العام يبرهن على أن وحشيته كانت أهم معالم شخصيته.

والغريب أن لينين نفسه كان يأمل في أن يتولى منصب سكرتير عام الحزب أن يتحلى بالصبر والأناة والحكمة و التعقل وهدوء الأعصاب لحساسية المنصب.

بيد أن لينين قد استشعر مدى نفوذ ستالين وكأنه ارتضى بدوره بفرضية الأمر الواقع خوفًا أن يفقد ستالين صوابه ويستهدف حياته هو الآخر لا سيما وأن فرق الموت التي شكلها ستالين كانت تفوق عصابات لينين وتروتسكي من حيث الكفاءة والمهارة والتسليح، وربما براعة تلك القوات في حصد أرواح نحو أربعين ألفًا من جنود الجيش السوفيتي وضباطه في غضون ساعات كانت

للتأكيد فقط على مدى القوة التي يتمتع بها ستالين.

والحاصل أن الفترة ما بين عامي ١٩٣٤ و١٩٣٨ قد شهدت كثيرًا من المذابح والمجازر الرهيبة التي يندى لها الجبين وتشيب منها رؤوس الرضع حتى إن ملايين الأنفس في مزارع روسيا ومصانعها وقطاعاتها المختلفة لقيت حتفها على يد جنوده ثم سرعان ما عاود إهدار دماء الملايين غيرهم خلال اندلاع الحرب العالمية الثانية سواء كان ذلك في صفوف القوات المسلحة أو القطاعات الحكومية الأخرى بحجة الموالة للجيوش الألمانية والتجسس لصالح النازي أودلف هتلر.

كانت فترة حالكة السواد اختفت خلالها شمس النهار حيث كان ليل موسكو طويلاً لا ينتهي إلا بعد أن فاضت روح هذا الرجل إلى بارئها.

أما ما يثير حفيظة أي إنسان هو ما ورد في محضر اللقاء الذي نشرته الخارجية البريطانية حول ما جرى من حديث طويل بين ستالين والزعيم البريطاني ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا عام ١٩٤٢ أي أثناء اندلاع الحرب العالمية الثانية.

وقد ورد في محضر اللقاء أن تشرشل طلب من ستالين أن يروي له كيف استطاع حصد نحو ستة ملايين فلاح سوفيتي؟!

واللافت للانتباه أن ستالين أبدى دهشته من أن الرقم الذي ذكره تشرشل يجافي الحقيقة حيث قال له في ارتياح وهو يبتسم أنت مخطئ يا تشرشل فأنا لم أقتل ستة ملايين، بل أنا قتلت بالفعل عشرة ملايين!!!

وللتأكيد على صحة الرقم الذي ورد على لسانه أشار بأصابع كفيه الاثنين

قائلاً مرة أخرى: «بل عشرة ملايين».

يا الله ... لقد فاقت مذابحه ما ارتكبه جنكيز خان، وهولاكو و تيمور لنك والحملات الصليبية ، بل ونابليون بونابرت !! عشرة ملايين نفس أهدر دماءها بضمير بارد، بل ويتفاخر في عزة وإباء من أنه لم يحصد ستة ملايين، بل عشرة ملايين، وكأن الأمر يحتاج إلى تصحيح بدلاً من نفي.

أين حمرة الخجل يا أيها العالم الغربي المتحضر؟

أين حقوق الإنسان؟

أين العدالة الاجتماعية؟ حتى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وأوربا الذين يتدخلون في شؤون الدول العربية والإسلامية بحجة حماية حقوق الإنسان ما استطاع أي منهم أن يتدخل على نحو أو آخر لوقف تلك المذابح والمجازر التي فاقت أعداد القتلى في الحرب العالمية الأولى التي استمرت أربع سنوات!!!

وأما العشرة ملايين الذين أجهز عليهم ستالين فقد كانوا من الكولاج أو الوسطاء بين المزارعين والملاك، وقد حصد أرواحهم حين أبدوا رفضهم لسياسته الرامية لبسط هيمنة الدولة على جميع الأراضي والمزارع السوفيتية.

والواقع أن ستالين لم يكن يألو جهدًا في إذلال أعناق الشعب السوفيتي ثم سرعان ما يبادر بقطعها إيثارًا للسلامة.

وإذا كان عدد ضحاياه من الكولاج عشرة ملايين حسبما ذكر ستالين نفسه فإن عدد ضحاياه الذين سقطوا تحت جنازير دباباته وأزيز طائراته وهدير مدافعه، لا يقل عن ستة ملايين مواطن كانت التهم الموجهة إليهم لا تعدو عن

الارتياب في نواياهم إزاء الحزب الشيوعي، ونحو ستالين في المقام الأول.

وتؤكد التقارير المنشورة حول تلك الحقبة أن غالبية خصوم ستالين قد لقوا مصرعهم خلال الفترة السوداء التي تولى خلالها (بيريا) منصب وزير داخلية البلاد، ثم تضاعفت أعداد ضحاياه عقب تسلمه ملف تصنيع القنبلة الذرية وتكليفه المباشر بالحصول على أسرارها وحمايتها من جواسيس وعملاء الغرب الإمبريالي.

وكانت العبارة الأخيرة هي رأس الحربة التي حاول (بيريا) توظيفها بطريقة بشعة ورهيبة حيث لوح بها في قتل خصومه هو شخصيًا ثم تصفية خصوم ستالين بحجة التجسس أو العمل لحساب الإمبريالية.

ولعل ما جاء في خطاب خرتشوف التاريخي الذي كنا قد عرضنا بعض فقراته والتي فضح فيها الممارسات الإجرامية التي ارتكبها ستالين حيث أكد قائلاً:

«لقد تمكن لينين أن يفضح شخصية جوزيف ستالين في الوقت الملائم أعني فضحه لعيوبه التي كانت لها انعكاسات خطيرة على مجمل الأوضاع داخل الاتحاد السوفيتي.

وإذا كان لينين راودته المخاوف من أن يصيب الحزب والنظام السوفيتي بعد وفاته فقد حلل شخصية ستالين بأسلوب علمي دقيق مما دعاه إلى الدعوة لبحث مدى إمكانية إقصائه عن سكرتارية اللجنة المركزية بسبب وقاحته الفجة وافتقاره إلى حسن التصرف إزاء زملاءه وحرصه على إلحاق الأذى بهم في استغلال واضح لسلطته».

ويضيف خورتشوف في خطابه التاريخي قائلاً:

«ففي مطلع شهر ديسمبر ١٩٢٢ راح لينين يبعث بخطاب موثق إلى مؤتمر

الحزب بعد أن أورد فيه ما يلي:

(بعد أن استولى الرفيق ستالين على مركز منصب سكرتير عام الحزب باتت في حوزته صلاحيات وسلطات ونفوذ لا حدود لها، ولست أدري هل بوسعه أن يكون أمينًا ودقيقًا أم أنه سيسيء استخدامها)!

ويستطرد خرتشوف قائلاً:

«لقد قال لينين أيضًا في ذلك الخطاب إن جوزيف ستالين وقح وأحمق ولئن كان هذا العيب أمرًا يمكن التجاوز عنه بيننا نحن أعضاء الحزب الشيوعي فإنه بالطبع عيب لا يمكن أن يكون موضعًا للتسامح بالنسبة لرجل يشغل مثل هذا المنصب الحساس.

ولهذا فإنني أقترح على جميع الرفاق أن يبحثوا إمكانية إبعاد ستالين عن هذا المنصب وإحلال شخص آخر مكانه شريطة أن يكون هذا الشخص أولاً وقبل كل شيء مختلفًا جذريًا عن ستالين من حيث التسامح، والرقة، والإخلاص، والعطف مع الرفاق جميعًا».

الفصل التاسع

الحرب العالمية الثانية

لم يكن بوسع ستالين الرجل الفولاذي إهمال شؤون الجيش الروسي لإدراكه متى خطورة التحديات من حوله سواء كان على مستوى الصعيد الداخلي أو الخارجي.

وطبيعي أن يلتفت ستالين إلى بناء الجيش، وتحديثه وتطويره على أحدث النظم العسكرية المتقدمة من حيث التدريب والسلاح والنظام والثقافة والتكتيك..

ولم يكن مستغربًا أن يغدق على القوات المسلحة بالمال الوفير حتى إنه كان يخصص نحو ٢٠٠ مليون روبل لتعليم الجنود ومحو أميتهم فقط، كما حرص على تزويد مكتبات القوات المسلحة بنحو ٢٥ مليون كتاب لتثقيف الجند ومحاولة الارتقاء بمستواهم الفكري والأدبي.

ولأن خريطة العالم العسكرية كانت تنذر بوقوع حرب باتت وشيكة ستقضي على الأخضر واليابس في ربوع الكرة الأرضية فقد حرص ستالين على تحسين أداء الجيش الروسي لحماية البلاد من شرر هذه الحرب القادمة الذي ستطاير

لا محالة لتحرق الأقاليم الروسية.

وبينما كانت القيادة السوفيتية تراقب الحرب التي اندلعت عام ١٩٣٩ بين الألمان من جانب والفرنسيين والإنجليز من جانب آخر وبدأ نطاقها يتسع بمرور الوقت ويكبر حجمها ككرة الثلج راح الروس يتخذون الإجراءات اللازمة لمواجهة أية تطورات قد تتعرض لها البلاد مستقبلاً.

وحدث بالفعل ما كان متوقعًا حيث شنت القوات اليابانية هجومًا مفاجئًا على جمهورية منغوليا الشعبية التي كان الاتحاد السوفيتي قد أعلن التزامه الرسمي بحمايتها منذ عام ١٩٣٦ ضد أي هجوم خارجي.

وأرسلت روسيا حينئذ قواتها العسكرية بقيادة المارشال زوكوف للمبادأة في صد الهجمات اليابانية العنيفة وهو التكليف الذي نجح في إتمامه على النحو المنشود.

كان الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت يحشد في القطاع الأوروبي من الاتحاد السوفيتي أكثر من ١٢٠ فرقة مشاة و١٦ فرقة مدرعة و٥ آلاف وحدة مدفعية ميدان ثقيلة وعشرة آلاف دبابة و ٥٥٠٠ طائرة حربية قاذفة ومقاتلة .

أضف إلى ذلك حرص ستالين على إصدار قانون التجنيد الإجباري وقرار بقسم وزارة الإنتاج الحربي إلى أربع وزارات مستقلة منها وزارة للطيران، وثانية للبحرية، وثالثة للذخيرة، والأخيرة للتسليح، والبدء في عمل مناورات ضخمة بين جميع أفرع القوات المسلحة السوفيتية لتهيئة الجنود على خوض غمار حرب قادمة لا محالة ، كما وجه ستالين أوامره إلى وزارة الصناعة ببذل قصارى جهدها من أجل إنتاج المزيد من المدافع الحربية استعدادًا للحرب التي أوشكت على الوقوع بين ساعة وأخرى.

وامتثالاً لأوامر الرجل الفولاذي ستالين أنتجت المصانع الحربية في الفترة من

عام ١٩٣٩ إلى عام ١٩٤١ أكثر من ٢٩٦٣٧ مدفع ميدان، ٥٣٤٠٧ هاون وقد بلغت حصيلة إنتاج هذه المصانع بما فيها مدافع الدبابات أكثر من ٩٢٥٧٨ وهو ما يبرهن على الأهمية القصوى التي كان يوليها ستالين بخصوص تصنيع المدافع.

كما بلغ عدد الطائرات التي أنتجها السوفييت في نفس الفترة يتراوح بين ١٧٠٠٠ و١٨٠٠٠ طائرة وحرص ستالين على ضرورة تطوير وتحديث هذه الطائرات بعد أن تبين له أن نظم ووسائل وتكنولوجيا الطائرات الألمانية يفوقها..

وأما بخصوص أوضاع القوات البحرية فلم تكن بعيدة عن اهتمامات الزعيم ستالين، ومن ثم كان عدد السفن البحرية ٦٠٠ قطعة منها ٢١١ غواصة و٢٧٩ زورق طوربيد وأكثر من ١٠٠٠ وحدة مدفعية سواحل وأكثر من ٢٥٠٠ طائرة.

كما اهتم بالفرد المقاتل لإدراكه مدى أهميته خلف السلاح، ومن ثم بلغ عدد أفراد القوات المسلحة الروسية ٥ مليون جندي روسي.

على الجانب الآخر كان تعداد القوات الألمانية يتعدى ١,٥ مليون مقاتل إلى جانب امتلاكها أضعاف أضعاف ما يملكه الاتحاد السوفيتي من الطائرات والدبابات والمدافع والبوارج والغواصات.

ساعة الصفر

ما من شك أن الاتحاد السوفيتي كان يمثل شوكة في جانب الزعيم الألماني أودلف هتلر وكم كان يحلم بأن يستيقظ من نومه فلا يعثر على أي أثر للاتحاد السوفيتي وكم حاول هتلر من جانبه إبرام اتفاق عدم اعتداء مع ستالين لكي يضمن تجنيب الروس محاربته متى قرر غز بولندا، وأوربا الغربية.

وبالفعل استطاع هتلر أن يوقع اتفاقًا بين ستالين في أغسطس ١٩٣٩ يقضي بعدم الاعتداء وتقسيم بولندا ويتبع ذلك تبادل المعونة بينهما، وأن تبلغ ألمانيا شريكها الاتحاد السوفيتي بمشاريع ألمانيا في النرويج والغرب.

والواقع الذي لم يكن خافيا على أحد أن الاتفاق لم يكن مقبولاً من الطرفين حيث كان لكل منهما أطماعه التي تتجاوز حدود وشروط هذه الاتفاقية وبمرور الوقت ازدادت حاجة الاتحاد السوفيتي للمواد الخام التي كانت متوافرة في البلطيق ولتوانيا واستونيا ولاتفيا حيث قامت القوات السوفيتية باحتلالهم دون التشاور مع هتلر الذي كان منهمكا في معاركه مع الفرنسيين.

وبعد أسبوع من هذه الحملة العسكرية المفاجئة التفت النمر الروسي إلى رومانيا بحجة استرداد إقليم سبارابيا وإجبارها على التنازل عن الجزء الشمالي من بوكوفينا وهو ما اعتبره الروس تعويضا عن الفترة التي ظلت فيها سبارابيا تحت سيادة رومانيا منذ عام ١٩١٨ .

من جانبها لم تتجاسر رومانيا على إبداء أية معارضة أو محاولة للدفاع عن

نفسها لادراكها مدى حجم التفاوت الرهيب والفجوة الهائلة بينها وبين القوات السوفيتية الغاشمة الأمر الذي ألزمها بالرضوخ لتلبية مطالب السوفيت ولم يكن ذلك الأمر متوافقا مع الهوى الألماني الذي بدأت تساوره الظنون في تحركات الروس ومدى التزامهم بالاتفاق المبرم بينهما وهو ما جعل هتلر يتحسس مسدسه إزاء حليفه الروسي المزعوم والذي رفس ما بينهما من تفاهمات وتعهدات في ٢٧ سبتمبر ١٩٤٠ وقعت ألمانيا اتفاقا ثلاثيا مع اليابان وإيطاليا دون الرجوع للاتحاد السوفيتي وهو ما دفع الروس لإعلان غضبهم واستنكارهم لهذا الأمر وقد علل الألمان بأن المعاهدة تتعلق بالشق الدفاعي فقط وهو التبرير الذي لن يستطع الروس هضمه وابتلاعه مما زاد من تعقيد العلاقة بين موسكو وبرلين أو ستالين وهتلر.

ولم يكن الاتفاق الثلاثي هو العامل الرئيسي لانهيار العلاقة بين البلدين بل جاءت الخطوة التي اتخذها الألمان في نفس العام بل بعد مرور ٤٨ ساعة فقط من الاتفاقية الثلاثية لتطيح بأعمدة العلاقة نهائيا حيث اكتشف الروس أن الألمان نجحوا سراً في الحصول على موافقة السويد وفنلندا على مرور المدافع الألمانية عبر أراضيهما لتمكين القوات الألمانية من تعزيز وتحصين دفاعاتها في منطقة النرويج القطبية الأمر الذي اعتبره الروس خرقا للاتفاق ومصدراً لتهديد أمن بلادهم.

ويبدو أن إقدام الروس على احتلال مناطق المواد الخام كانت القشة التي قصمت ظهر البعير بين البلدين مما دعا الألمان إلى الإعلان عن إرسال بعثة عسكرية رفيعة المستوى بدأت في تدريب الجيش الروماني قد أدى إلى إصدار يمين الطلاق بغير رجعة بعد أن تبين أن كلا منهما يضمر في نواياه شراً وحقداً وكرهاً لا تعنيه أية معاهدات واتفاقات.

وما من شك أن هذه الحوادث قد دفعت بهما إلى جبهة القتال حتى يملي أحدهما إرادته على الآخر وليكن هو صاحب القول الفصل في نهاية المطاف.

ولأن هتلر كان يعول آمالا عريضة على تحييد الاتحاد السوفيتي أو استمالته فقد بدا مزعوراً مسعوراً ينبغي التهامه والتخلص منه انتقاما لسياسته الغاشمة والماكرة على حد سواء.

واجتمع هتلر ما قادة جيشه النازي لتحديد موعد إعلان الحرب على الاتحاد السوفيتي وقد فرض إطاراً صارماً حازماً من السرية الشديدة والغموض الأشد كي لا يتسرب النبأ إلى ستالين فيبادر بالمبادأة في شن هجوم واسع النطاق قد يؤثر على سير العمليات العسكرية الدائرة.

كان أحد القادة العسكريين قد أشار في هذا الاجتماع الأخير إلى ضرورة الاستيلاء على مناطق شاسعة من الأراضي الروسية لخدمة أهداف الحملة الألمانية وقد سميت هذه الخطة بمشروع «أولدنبرج» التي هدفت إلى السيطرة على أوربا وبعض تخوم آسيا الصغرى واستغلال جسور وطرق هذه المناطق لتأمين الجيوش الألمانية بعيداً عن أي مصيدة أو شباك أو حصار فضلاً عن حرية واسعة في تحركاتها.

كما اقترح أحد الضباط النازيين في حضور هتلر أن إتمام عملية الهجوم ينبغي أن يعتمد على ثلاث محاور:

المحور الأول: يشمل الهجوم من بروسيا الشرقية من أراضي لاتفيا ولتوانيا على مدينة لينتجراد.

المحور الثاني: يعتمد على تقدم القوات من بولندا إلى العاصمة السوفيتية موسكو.

المحور الثالث: الزحف إلى مدينة كييف وأوكرانيا.

وقد حشد الألمان نحو ١٨٠ فرقة تضم نحو ثلاثة ملايين ونصف المليون رجل جندي نازي وروماني وفنلندي وسلوفاكي ومجري وأسباني وإيطالي.

أما الجانب السوفيتي فقد حشد على حدود ألمانيا حوالي ١٦٠ فرقة ضمت نحو مليونا وثلاثمائة ألف رجل تحمي رؤوسهم ٦ آلاف طائرة وتحيط بهم عشرة آلاف طائرة.

وفي حين كانت عقارب الساعة تشير إلى الثالثة وسبعة عشرة دقيقة من فجر الثاني والعشرين من يونيو اندلعت موجات الهجوم الألماني الرهيب الذي شمل مناطق بحر البلطيق إلى البحر الأسود في واحدة من أعنف موجات الهجوم التي لم تشهد الإنسانية لها مثيل على الإطلاق من حيث كثافة النيران المنبعثة من فوهات المدافع الأرضية والجوية والبحرية أيضاً ومن حيث حجم الخسائر البشرية الهائلة.

كانت القوات الألمانية في بداية المعركة تمضي نحو غاياتها على النحو المرسوم و المستهدف.

في تلك الأثناء التي تلقى فيها ستالين نبأ الهجوم الألماني أمر مدير مكتبه باستدعاء قادة الجيش

وفي هذا الاجتماع الطارئ قال ستالين وقد ارتسمت على محياه معالم الأسى والأسف والوجوم لظنه أن هتلر لن يتجاسر على محاربته وأن الحشود الألمانية التي شوهدت توهم أنها مجرد مناورات خداعية للترهيب لاسيما وأن ستالين لم يكن يرغب في الجنوح للحرب لبناء بلاده وهي حقيقة لا يجهلها أحد على الإطلاق.

وقد قال ستالين وهو يتفحص بعينه وجوه قادة الجيش:

«يجب أيها السادة الاتصال حالاً بالسفارة الألمانية..» ثم توقف عن الاسترسال في الحديث وقد أغمض عينيه كأنه يعيش كابوسا مزعج حيث لا يصدق ما يجري لبلاده على يد الألمان ثم بعد فترة من الصمت خيمت على القاعة انبرى زاعقا بقوله:

ينبغي علينا دخول المعركة بكل ما أوتينا من قوة لوقف زحف العدو وتوغل دباباته.

فعلق وزير الدفاع السوفيتي قائلاً وهو يضغط على حروف كلماته:

أظنك يا سيدي لا تقصد الوقف بل تعني تدميره أليس كذلك.

وعقب الاجتماع بدأ الجيش الروسي في دفع تعزيزاته النشيطة إلى ميادين القتال لاصطياد الدبابات الألمانية وكان أن قام الروس بشن هجوم عبر أعداد هائلة من الدبابات على الجناح الجنوبي لطليعة دبابات الألمان.

وللإنصاف فقد استطاع الروس بالفعل وقف الزحف الألماني المتجهه إلى مدينة كييف عاصمة أوكرانيا.

لكن ستالين لم يكن راضيا عن الأداء العسكري وخطط القتال الموضوعة ومن ثم فكر مليا في تغيير قادة القوات لعجزهم حسب رؤيته عن تنفيذ المهام الموكولة إليهم.

وبدا ستالين عصبيًا إلى درجة يتعذر التفاهم معه لاسيما بعد أن تلقى أنباء تفيد بنجاح الألمان في اختراق دفاعات الروس وأنها تتقدم نحو الداخل في منطقتي بيلاروسيا والبلطيق.

وبعد مرور ١٨ يوما من اندلاع المعارك كانت الجبهة الشمالية الغربية قد أتمت

انسحابها من بلدان لتوانيا ولاتفيا وبعض من جمهورية روسيا الاتحادية.

كانت الخسائر حتى تلك اللحظة قد قدرت بنحو مائة ألف فرد ألماني وسقوط ألف طائرة واحتراق ١٥٠٠ دبابة ورغم ذلك فقد استطاع الألمان التوغل داخل العمق السوفيتي.

وعلى أثر هذه المعارك التحمت القوى الشعبية الروسية بالقوات المسلحة من أجل حشد وتعبئة أفراد الشعب السوفيتي لطرد العدو الألماني حيث لم يكن الروس يتلعون احتلال الألمان لبلادهم.

من هنا نجح الحزب الشيوعي إلى توظيف وتسخير أدوات ومواد ووسائل الانتاج والمواصلات في البلاد إلى خدمة القوات المسلحة بعد نجاحه في نقل وتفكيك المصانع الحيوية والاستراتيجية إلى الداخل لحماية الصناعة الروسية والاستمرار في انتاج ما يلزم الجيش من عربات وطائرات ودبابات ومدافع وذخيرة وملابس وبنادق.

ولم يكن مستغربا أن يصدر نحو عشرة آلاف قرار من اللجنة الحزبية لإدارة شئون الحرب داخليًا وخارجيًا للتنظيم والإعداد والتجهيز والحشد والتمويل والإمداد والتعبئة.

في تلك الظروف العصيبة التي تتعرض لها روسيا كان ستالين كعادته يتميز بالبأس والقوة والصلابة والشجاعة والحكمة والاتزان وهدوء الأعصاب مما أثار دهشة رفاقه في الحزب الشيوعي وداخل المجلس الأعلى العسكري.

وكان ستالين قد حدد بمساعدة مستشاريه العسكريين أهدافا استراتيجية لا ينبغي أن يحيد الجيش السوفيتي عنها مهما كانت التحديات والمخاطر.

وقد تبلورت تلك الأهداف فيما يلي:

١ – إيقاف القوات الفاشية أمام الخطوط الدفاعية لكسب مزيد من الوقت لحين وصول الإمدادات.

٢ – استنزاف العدو وتكبيده أفدح الخسائر لإعادة الأمور إلى نصابها وانهاء الخلل البارز في ميادين القتال لصالح الألمان.

٣ – تأمين الإجراءات التي تقوم بها القوى الشعبية والحزبية لتهجير المواطنين والمواقع الاستراتيجية الصناعية.

٤ – إفشال مخطط هتلر من خلال شن هجوم كاسح وعنيف يستلزم استعدادات هائلة وباهظة.

واحتدت حدة المعارك بين الجانبين لاسيما وأن ستالين كثيرا ما كان يلقي بالخطب الحماسية على أسماع الجنود داخل الجبهات وعلى مرأى من الشعب السوفيتي الذي كان حتى أن ستالين كان يبشر الشعب والجيش بالخسائر التي تكبدها العدو وبعد مرور ستة أشهر من اندلاع المعارك حيث بلغت خسائر الألمان أكثر من ٨٣٠ ألف جندي أي بنسبة قدرت بنحو ٢٥,٩ ٪ من حجم القوات التي حشدها هتلر على الحدود السوفيتية.

ورغم سقوط مناطق عديدة في أيدي النازيين فقد كان الروس على يقين من أنهم سينتزعون تلك المناطق مرة أخرى لاسيما بعد أن تلقى الروس بما يفيد بالدعم الأمريكي الذي أعلنه الرئيس روزفلت ذلك والتعاون مع الإنجليز حيث أكد الزعيم ورئيس الحكومة البريطاني ونستون تشرشل عزم بلاده على إرسال ٥٠٠ طائرة مقاتلة وعشرة آلاف دبابة إلى الاتحاد السوفيتي.

ولم يكن الدعم يقتصر على هذا فحسب حيث تدفقت على موسكو شحنات

هائلة من المواد الغذائية والملابس وأجهزة الاتصال وإن كان ذلك لم يكن يلبي طموحات ستالين الذي كان يتطلع إلى توريط الإنجليز في الحرب مع الألمان بهدف تخفيف حدة الهجوم الألماني على بلاده.

وكان الجيش الألماني قد اقترب من العاصمة موسكو بنحو ٢٥ كيلو متر ولولا الهجوم العنيف المضاد الذي شنه الجنرال زيكوف لتغير وجه العالم حيث أحبط الهجوم الألماني وشل حركته.

أضف إلى ذلك أن دخول فصل الشتاء الثلجي الذي تتعرض له روسيا كان له عظيم الفضل في دحر قوات هتلر وهو ما ساعد الجيش السوفيتي على فرض حصار على مراكز وحشود القوات الألمانية في أوكرانيا الشرقية ومنطقة القرم وفي منطقة الشمال من لينتجراد لفك الحصار المضروب حولها.

وهكذا اتحدت جهود الشعب مع الجيش مع القادة مع الإنجليز مع الأمريكيين والكنديين مع المناخ الثلجي القارس مع اضطراب أعصاب هتلر الذي لم يكن يتوقف عن تغيير قادة جبهات القتال مع كلمات وخطب ستالين التي شحنت وحركت وأشعلت حماس الأمة السوفيتية في دحر العدو النازي.

أضف إلى ذلك تضارب الخطط التي رسمها هتلر وسهولة استبدالها خلال نشوب المعارك دون توخي الحذر من تداعياتها.

ولم تكن هذه هي الأسباب التي أدت إلى إلحاق الهزيمة بالألمان في جبهة القتال الروسية فحسب بل إن سياسة حرق الأرض التي تمسك بها الجيش الروسي قد أفشلت وأجهضت المخططات الاستيطانية النازية حيث كانت المدن والقرى الروسية سرعان ما تتحول عقب سقوطها إلى كتلة من الفحم لا يمكن للألمان البقاء بداخلها أو الاستفادة من مواردها.

كما لا يمكن لأحد أن يغفل عن الدور المتميز الذي لعبه جهاز المخابرات

الروسي خلال الحرب حيث إن المعلومات التي استطاع الحصول عليها وقدمها للقادة العسكريين أدت بالطبع إلى تدمير أكبر مراكز التجمعات الألمانية داخل الأراضي السوفيتية ومن ثم شهدت البلاد تحرير جمهورية بيلاروسيا وأوكرانيا وليتوانيا وشرق بولندا.

لم تكن الهزيمة التي ألحقها السوفيت بالألمان مجرد هزيمة عابرة بل كانت فادحة ومهينة حيث استطاعت تدمير أغلب فرق القوات الألمانية لاسيما جيش الدبابات الثالث وجيش المشاة الرابع والتاسع.

وما يستدعي الانتباه في هذه الحرب المجنونة أن ياكوف بن ستالين كان أحد ضباط الاتحاد السوفيتي وقد وقع أسيراً في شباك الألمان الذين كانوا يسومونه سوء العذاب لإفشاء الأسرار العسكرية الخطيرة والدقيقة بوصفه ابن سيد روسيا وحاكمها الأوحد بيد أن ياكوف لم يكن على استعداد للافشاء بأية أسرار عسكرية تهدد أمن وسلامة الاتحاد السوفيتي.

المهم أن الاتحاد السوفيتي استطاع تحرير أراضيه وطرد الألمان منها بصورة نهائية باستثناء كورلياندا لكن رغم ذلك استطاع نقل جبهات القتال خارج روسيا إلى أوربا الشرقية وألمانيا.

ومع استعادة زمام الأمور وتحرير الأرض استرد الروس عافيتهم ومضوا في طريق القضاء على هتلر وعصابته حيث زود الاتحاد السوفيتي شعوب أوربا التي تناضل من أجل إلحاق الهزائم بالنازيين بشتى ألوان الدعم المادي وعلى سبيل المثال زود قوات التحرير البولندية بنحو ٣٥٠ مدفع ميدان، ١٢٠٠ طائرة، ١٠٠٠ دبابة، ٧٠٠ ألف بندقية، ١٨ ألف عربة ميدان كما زود قوات التحرير في يوغسلافيا بحوالي ٤٥٠٠ مدفع ميدان و٥٠٠ طائرة، ١٣٣٠ محطة إذاعة وآلاف المعدات الحربية.

ورغم ما تكبدته القوات الروسية والشعوب السوفيتية من خسائر رهيبة في الأرواح تجاوزت الثلاثة ملايين فقد كان الجيش السوفيتي قبل اجتياحه لبرلين النازية يشتمل على حوالي ستة ملايين جندي و١١ ألف دبابة ومدفع ذاتي الحركة و١٥ ألف طائرة، و٩١ ألف مدفع ميدان وماكينة.

وكان التحالف الروسي الأمريكي البريطاني أهم وأبرز عوامل الانتصار على الألمان واجتياح برلين في ٢١ أبريل ١٩٤٥ لتغيير معالم خريطة العالم وخطوطها ولينكفأ ستالين على نفسه من أجل إعادة بناء بلاده التي تحولت إلى كومة من الرماد على يد النازيين.

الفصل الأخير

وفــاة ســتـــالين

مـــــامن شك أن هـذا الـرجـل الـرهـيـب الـذي حـكـم بـلاده بالـحـديـد والـدم والـنـار وأباد عـشـرة مـلايـين من أهلهـا دون أن يغمض لـه جفن قـد تـاق الـجـمـيـع إلى الـيـوم الـذي تـسـتـريـح مـنـه البلاد وتسترد وعيها المفقود وكرامتها الذبيحة.

كان الشعب السوفيتي بأسره يرفع أكف الضراعة إلى الله رغم إلحاده لكي يقضي على هذا الزعيم وإن كان أغلبهم قد ساورته الظنون في أن مثله سيخلد ولن يموت وكأنه أعظم وأقوى من الموت وسبحان من له الدوام.

صحيح أن الدعاية الروسية الشيوعية لعبت أهم وأخطر أدوارها على الإطلاق حتى أنها استطاعت كما أشرنا أن توهم الشعب السوفيتي المسكين أن جوزيف ستالين ذاك الرجل الفولاذي هو إله الأمة الروسية ومانحها وولي نعمتها رغم أن الشعب كان يتضور جوعاً حيث الخيرات كانت تعرف طريقها لكبار قادة الحزب الشيوعي دون غيرهم.

كانت صور الزعيم تتصدر الحوائط والجدران في الشوارع والطرقات والميادين ودواوين الحكومة ولم يكن ذلك بمستغرب على شعب اعتاد أطفاله أن ينشدون في طابور الصباح «علينا أن نشكر الرفيق ستالين لأنه وهبنا نعم الحياة».

ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو للدهشة إذا علمنا أنه عشرات الكليات في أنحاء روسيا كانت تحمل اسمه ظناً منه أنه سيخلد إلى الأبد حتى وإن فارق الحياة أو ليس لينين لايزال جسده مسجى في تابوت يتوافد عليه الملايين ليلقون عليه نظرة تأملية لا تخلو من دهشة واستخفاف وأحياناً تقدير واحترام لعظمة الأطباء في التشريح وعلوم التحنيط!!!

على أية حال كان الشعب السوفيتي في زمن ستالين يشكو الفاقة ويهجو قسوة الزمن ويبكي من خواء جيوبه التي نضبت وجفت رغم أن الرجل أسس المزارع والمصانع وشيد جيشا مرهوبا مهيبا يقذف الرعب في القلوب حتى أضحى على يديه ثاني أقوى جيوش العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

صحيح أن الاتحاد السوفيتي شهد نهضة اقتصادية لاشك في ذلك لكنها كانت تذهب بخيراتها وكنوزها إلى رفاق ستالين الذين توحش نفوذهم وتعاظم ثرائهم حتى أن الشعب الروسي رغم ثراء بلاده أفقر شعوب الأرض نتاج سياسة السلب والنهب والازدراء والاحتقار والاستخفاف.

❁ ❁ ❁

على أية حال مات ستالين كسائر البشر ولم يكن معصومًا من الموت كما ظن الروس وقد سبقت وفاته أزمة صحية خطيرة لزمته حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

ففي مساء الأحد ١ مارس ١٩٥٣ تعرض ستالين إلى حالة إغماء مفاجئة

لانفجار أحد شرايينه صاحبه نزيف شديد في الجانب الأيسر من المخ.

وطبيعي أن يتعرض الزعيم المهيب للشلل في يده اليمنى وساقه اليمنى فضلاً عن أنه عجز كلياً على أن يتفوه بكلمة واحدة ليتحول في لمح البصر إلى كومة من اللحم لا يقوى على الحراك بعد أن كان يأمر وينهي!!

وبمجرد أن سقط مغشيًا عليه استدعت سكرتارية مكتبه الخاص فريق الأطباء رفيع المستوى يترأسه وزير الصحة ويتكون من تسعة أطباء بارزين تعرضوا جميعا لمحاذير شديدة اللهجة نبهتهم إلى التزام الحيطة والحذر والكتمان.

وعلى نحو مفاجئ (صباح الأربعاء الرابع من مارس) خرجت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ببيان يجلي فيه غموض الموقف أمام العالم والشعب السوفيتي كانت الكرة الأرضية تحبس أنفاسها وترصد بعيون محدقة شاخصة ذاهلة مفردات وكلمات البيان المفاجئ الذي سبقته أجراس الكرملين بما ينبئ بأن شيئاً يجري داخل روسيا .

وجاء البيان صادماً للعالم الذي بدأ يراقب الوضع في قلق على مصير الاتحاد السوفيتي بعد ستالين الذي بات قاب قوسين من الموت وربما أدنى.

في عصر اليوم نفسه أدلى الأطباء ببيان إلى العالم جاء فيه:

(إنه في تمام الساعة الثانية من صباح اليوم كانت حالة الرفيق جوزيف ستالين الصحية ماتزال على حالها خطيرة للغاية حيث إن التنفس ٣٦٠ في الدقيقة والنبض ١٢٠ وهو يفتقد إلى الانتظام).

من جانبه لم يدخر الفريق الطبي أية جهود في محاولة إنقاذ أخطر مريض في العالم والرجل الذي حكم البلاد طوال تسع وعشرين عاماً عبر نظرات عينيه

المتوحشة ولسانه الناري وقلبه الفولاذي ويده الطائشة حيث زوده بحقن الجلوكوز بغرض تعويضه عن الطعام والكافيين على أمل استرداد عافيته، والأكسجين حتى تظل الحياة بداخله.

ويروي الأطباء فيما بعد وفاة ستالين أنهم عجزوا عن إنقاذه عبر الوسائل الطبية الحديثة مما اضطروا إلى اللجوء للأخذ بالأساليب البدائية ربما تفلح فيما أخفق فيه العلم الحديث.

واستعان الفريق الطبي بنظرية الدود الذي وضعه يهدف امتصاص الدم من أوردته دون جدوى حيث كانت حالة المريض الخطيرة تتدهور وتزداد سوءاً ساعة بعد أخرى.

ولم يطرأ أي تحسن على صحته رغم الجهود المبذولة لوقف نزيف المخ وتنشيط الدورة الدموية ومحاولة تنظيم ضربات القلب واستعادة قدرته على التنفس الطبيعي وعبثا جاءت المحاولات.

والواقع أن حالة من الوجوم سادت أعضاء الحزب الشيوعي وملايين الروس الذين كانوا ضحايا لإعلام ستالين الزائف.

فيما كان غالبية الشعب يدعو بظهر الغيب أن يرحل عن دنياهم غير مأسوف عليه ولكن كان تضرعهم سراً وخفية.

ومع تدهور الحالة الصحية للزعيم الشيوعي راح الفريق الطبي يدلي ببيان آخر فجر الخميس الخامس من مارس جاء فيه:

(إنه خلال ليلة الأربعاء والساعات الأولى من النهار تدهورت حالة الرفيق جوزيف ستالين وعند الساعة الثامنة هذا الصباح الخميس ٥ مارس ١٩٥٣) بدت بعض علامات تشير إلى انهيار حالته وفي الساعة الحادية عشر ونصف

تعرضت حالته لانهيار مماثل للانهيار الأول.

وبعد بضع ساعات من هذا البيان أصدر الفريق الطبي البيان الختامي وكشف حساب صحة الزعيم الفولاذي الذي أصبح في عداد الموتى وقد أكد البيان التاريخي:

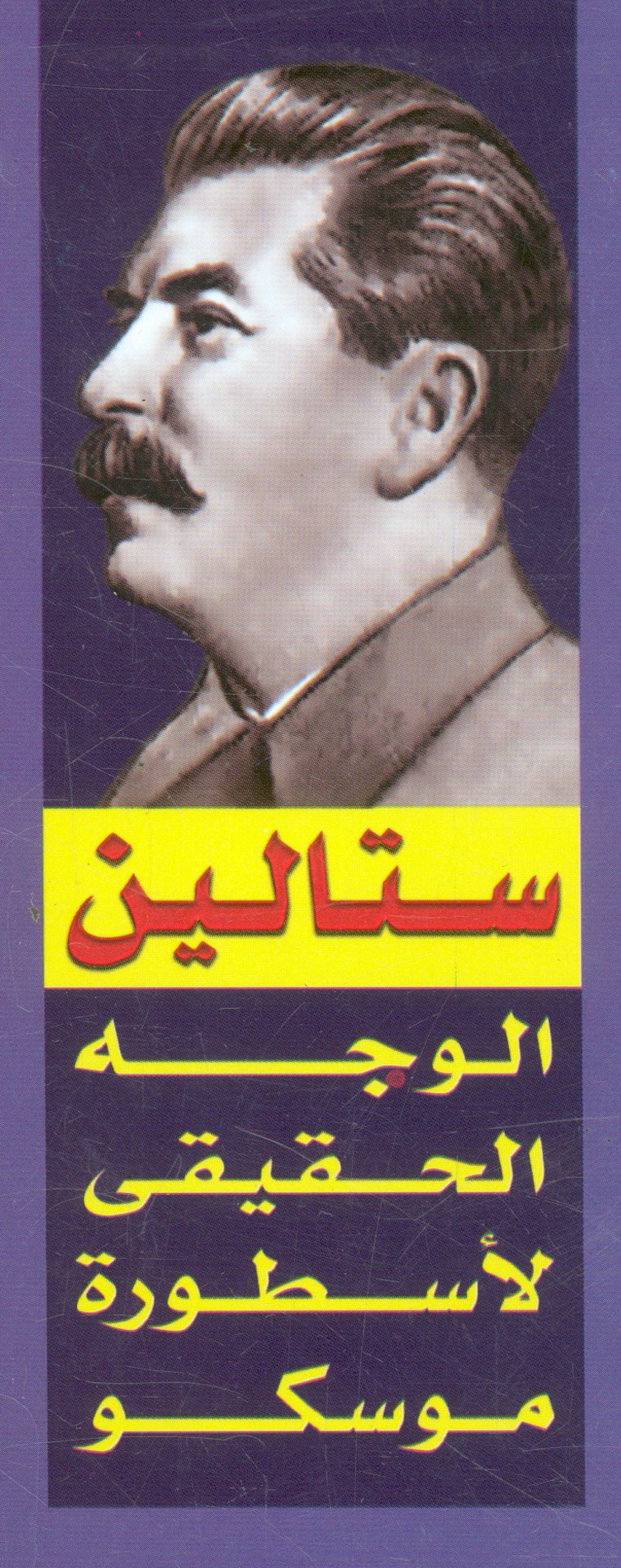
«لقد توقف قلب الرفيق.. الملهم... الموهوب حامل رسالة لينين.. الزعيم العظيم والقدير.. والحكيم معلم الحزب الشيوعي ومعلم الشعب السوفيتي وسيد العالم جوزيف فيساروينوفيتش ستالين عن عمر يناهز ٧٣ عاماً».

بعد هذا البيان المفجع راح العالم يتابع بشغف ما يجري في القلعة الحمراء التي تدير نصف الكرة الأرضية.

وجرت مراسم جنازته على قدم وساق حيث توافد على مبنى الكرملين جميع قيادات الحزب الشيوعي عبر سيارتهم السوداء الفارهة فيما حاول أبناء الشعب متابعة ما يجري دون جدوى حيث كانت قوات الشرطة تفرض حزامًا أمنيًا رهيبًا على منافذ البلاد تحظر دخول عامة الشعب.

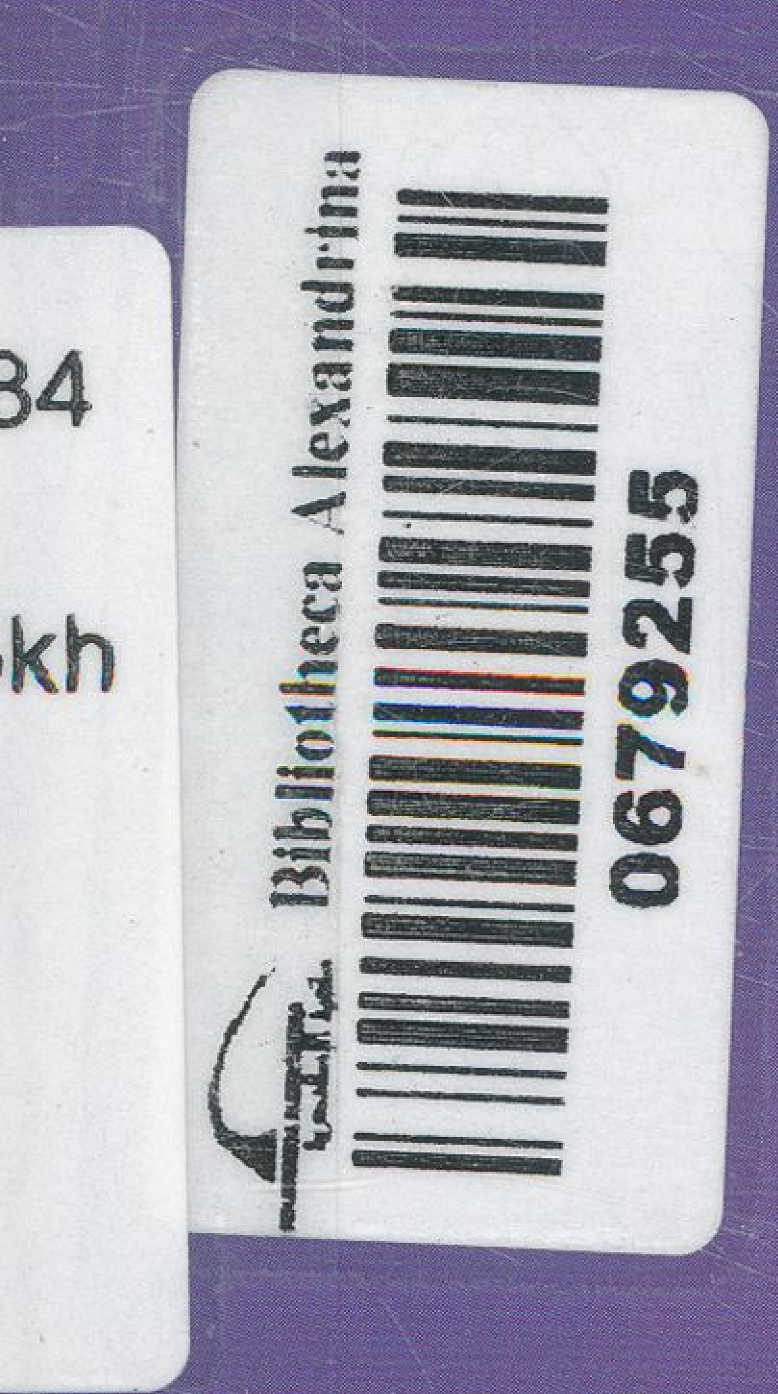
وفي الميدان الأحمر أقبلت عربة نقل زرقاء اللون تحيط بها ثلاث عربات سوداء وتصدرت العربة باب الكرملين وسرعان ما خرج الجنود الروس يحملون تابوتا من داخل العربة بداخله جثة جوزيف ستالين واتجهوا به وسط آلاف المشيعين من الحزب الشيوعي إلى داخل المبنى للدفن بجانب معلمه وأستاذه فلاديمير لينين وكان لافتًا للأنظار اختفاء ابنه ياكوف الذي كان يشغل منصب قائد القوات الجوية بعد عودته من الأسر واختفاء من كانوا لا يفارقونه قط خوفاً من غضبة الشعب بعد أن تأكد لهم أن الرجل كسائر البشر لفظ أنفاسه إلى بارئها ولن يعود أبداً ليواجه الاتحاد السوفيتي سنوات عصيبة ورهيبة ولم تكن قط آمنة وبفعل السياسات التي أرساها جوزيف ستالين.

فهرس الكتاب



ستالين

الوجه الحقيقى لأسطورة موسكو



مكتبة النافذة